الأعلام من الأدباء والشعراء



الصعاليك في العصر الأموي

أخبارهم وأشعارهم

إعداد

محمد رضا مروة

ماجستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء



الصَّعاليكُ في العَصْرِ الأُمَويّ

أَخْبارُهُم وأَشْعارُهُم

إعداد

محمّد رضا مروّة

ماجستير في اللغةِ العربيّةِ وآدابها

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء

الصعاليك في العصر الأموي

أخبارهم وأشعارهم

إعداد

محمد رضا مروة

ماجستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

المقدمة

لعبت العوامل الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، في العصر الأموي دوراً كبيراً في نشوء حركة الصعلكة، فقد عسف الأمويون بالقبائل وأهل الأمصار الذين لم يقفوا بجانبهم، وظلموهم ظلماً فادحاً، فارضين الضرائب والصدقات الباهظة عليهم دون مراعاة لإملاقهم أو جدب أرضهم. حيث ساد الفقر، وانتشر بين القبائل. وبرز أفراد تمردوا على سياسة بني أمية، وصمموا على انتزاع حقوقهم بحد السيف.

ونشأت طوائف الصعاليك في تلك البيئة المضطربة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وكانت ثلاث طوائف:

١ ـ طائفة الصعاليك الفقراء.

٢ ـ طائفة الصعاليك الجناة والخلعاء الهاربين من العدالة.

٣ ـ طائفة الصعاليك السياسيين.

وقد كان الفقر هو القاسم المشترك بين طوائف الصعاليك الثلاثة. إلاّ أنهم تميزوا بالعفة والكبرياء، والقوة والبأس مع احترافهم الإغارة في سبيل النهب والسلب. وبرز عندهم صوت كان قد خبا، هو صوت تماسك القبيلة ووحدتها ونقاء روحها، ونصرتها لأبنائها ظالمين أو مظلومين. لكن الصعاليك السياسيين كان هدفهم تقويض أركان الدولة والقضاء على خلفائها. وتكوين دولة الصعاليك التي تقوم على العدل والمساواة.

وبالوقوف على أشعار الصعاليك في تلك الفترة، وموضوعاتها وخصائصها فإننا نجد أن تغيرات هائلة قد طرأت عليها بحكم تغير الظروف والحياة. وأشهر تلك الموضوعات: وصف السجن، والمديح، والحنين، والتوبة والاعتذار والاستغفار.

واتصفت أشعار الصعاليك في العصر الأموي بغلبة الصفات الجاهلية عليها إذ كانت في جملتها مقطوعات لا قصائد طويلة إلاّ في القليل النادر. وتمثلت فيها الوحدة الموضوعية، وطبعت أشعارهم بطابع السهولة والسلاسة والأسلوب الواضح المستقيم، البعيد عن الغموض والغرابة في الألفاظ.

ويهمنا: أن يتقبل القارىء الكريم ما نضعه بين يديه لأنه الوحيد هو الحكم والموجه والمرشد.

والله ولي التوفيق
محمد رضا مروة
يحمر ـ النبطية
١٩٨٩/٢/٢٥

تمهيد

١ ـ صدر الاسلام وضعف حركة الصعلكة

ألف الصعاليك في الجاهلية طائفة من الشعراء لها أشعارها بموضوعاتها ومميزاتها، ولها أسلوبها وغاياتها في حياتها. ونشأت هذه الطائفة بفضل ظروف جغرافية، وأوضاع اقتصادية، وتقاليد اجتماعية، أثرت في نشوء حركة الصعلكة في العصر الجاهلي.

فالبيئة الجغرافية التي نزلت بها القبائل العربية، لم تكن متساوية ولا متشابهة في خصبهاوغناها، وجدبها وفقرها. بل كانت مختلفة الأقاليم، متباينة في الإنتاج. حتى ان الثروة لم تكن موزعة توزيعاً عادلاً بين القبائل في المدن والقرى. مما أدى إلى نشوء طبقتين اجتماعيتين مختلفتين: طبقة ثرية، يمثلها أصحاب الأموال الكبيرة، أو الإبل الكثيرة. وطبقة معدمة فقيرة، تمثل السواد الأعظم من الناس، حيث عاشت هذه الطبقة على الكفاف والشقاء. وأدى هذا التناقض الحاد

بين الطبقتين إلى بروز ظاهرة اللاتوازن الاجتماعي. وحمل بعض الفقراء إلى احتراف الغزو لاستخلاص قوتهم اليومي.

أما التقاليد الاجتماعية فإنها تتلخص بالنظم الحضارية التي تمسكت بها القبائل حيث أثرت هذه التقاليد في تكوين طبقتين أخريين من الصعاليك غير طائفة الفقراء المعدمين. أولاهما طائفة الخلعاء، الذين تخلت عنهم قبائلهم إثر جناية أو عمل مهين، إذ أصبح وجودهم في قبائلهم شراً لا يطاق، فخلعتهم، وتبرأت منهم. وأصبحت لا تطالب بحقوقهم إذا اعتدى عليهم أحد. ولا تقوم بتحمل جرائرهم في القبائل الأخرى. أما الطائفة الثانية فهي طائفة الأغربة السود، فمن سرى السواد إليهم من أمهاتهم الحبشيات.

وتحت تأثير الظروف الاقتصادية والنظم الاجتماعية تكون الصعاليك في الجاهلية من ثلاث طبقات:

١ ـ طبقة الفقراء مثل عروة بن الورد. وبعض القبائل الفقيرة مثل هَذيْل وفَهمْ.

٢ ـ طبقة الخلعاء مثل حاجز الأزدي وقيس بن الحدادية وأبي الطمحان القيني.

٣ ـ طبقة الأغربة السود مثل تأبط شراً، والشنفرى، والسليك بن السلكة.

وقد وحد بين هؤلاء وجمع بينهم الجوع المدقع، والضياع في مجاهل الصحراء، والتشرد في الفيافي الواسعة، والتمرد المختزن في الصدور على واقع مرفوض عندهم، وأدى التمرد في النهاية إلى ثورة على المجتمع الجاهلي وما يمثل من قيم وتقاليد. ومضوا يحققون وجودهم، ويفرضون أنفسهم على مجتمع لم يعترف بهم، ولم يؤمن لهم أسباب الحياة، وكانت وسائلهم الإغارة من أجل السلب والنهب، فأغاروا على الأسواق، ونهبوا القوافل، وسلبوا الإبل.

أما حياتهم في مجاهلهم فقد كانت تقوم على المساواة، وتحقيق العدالة الاجتماعية فيما بينهم. إذ كانوا يوزعون ما يغنمون على أنفسهم بالتساوي وقد تميز عروة بن الورد بأنه كان يعطف على الفقراء، ويقسم لهم ممّا يغنم. وقد حقق هؤلاء وجودهم بحد السيف، وفرضوا حياتهم على المجتمع بالقوة. وكانوا أصحاب بأس وشدة، وشجاعة نادرة، وكانوا عدائين عدواً ضرب به المثل، صابرين متصبرين، بصيرين بالصحراء ودروبها ومساربها، وبالجبال وشعابها ونقابها، وبالأسواق وأيامها ومواسمها. وبمناطق الخصب والخير، ومواضع الثراء.

وفحوى القول أن اختلال التوازن الاجتماعي، أدى إلى نشوء طائفة الصعاليك في العصر الجاهلي. التي خلقت

لنفسها مجتمعاً آخر يُعنى بقيم جديدة في مجتمع جديد، هو مجتمع الصعلكة. الذي آمن بالغزو من أجل النهب، وبالإغارة من أجل السلب.

وعندما أشرقت أنوار الدين الإسلامي على الجزيرة العربية، اختفت إلى حد كبير ظاهرة الصعلكة. إذ قلّ الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام قلة ملحوظة. وتضاءل نشاطهم تضاؤلاً شديداً. وسبب ذلك أن العوامل التي أدت إلى نشوء ظاهرة الصعلكة في الجاهلية، قد ألغاها الإسلام، واستأصلها. وأحاط المجتمع بسياج قوي من القوانين، التي حمت الفرد والجماعة، وكفلت للناس حياة كريمة. فقد هدم الإسلام النظام القبلي الجاهلي، وتقاليده وعاداته التي تقوم على الفرقة والتناحر والتقاتل الدموي بين القبائل والبطون، وما تحمله تلك القبائل من تعصب كل واحدة منها لأبنائها، وثورتها لدفع الأذى والمكروه عنهم. لما يربط بينها وبينهم من أواصر النسب. وأشاع الإسلام في ذلك الشتات القبلي المتناحر المتعصب، فكرة الأمة الواحدة المتراحمة، التي لم تعد الرابطة القبلية هي التي تجمع شملها، وإنما أصبحت الرابطة الدينية هي التي تؤلف بين قلوبها.

وبإشراق أنوار الدين الإسلامي تحول العرب من نظام القبائل المتصارعة إلى نظام الأمة المتماسكة التي تدين

بالإسلام . حيث المساواة بين الأفراد في الحقوق والواجبات دون النظر إلى أصولهم وأعراقهم وأجناسهم، فكلهم مسلمون، وكلهم متكافئون، لا فرق بين العربي والعجمي، ولا بين الأسود والأبيض، ولا بين الغني والفقير. وإنما أساس التفاضل بينهم هو الصلاح والتقوى، لا الأصل والسلطان.

وأرسى الإسلام مجموعة من القواعد الاجتماعية التي تضمن حياة الفرد الفاضلة، وبيّن الحدود التي تضبط الأمن، وتمنع الفوضى، وتقضي على الفساد والانحراف، ونظم الميراث والمعاملات أدق تنظيم. فمن الناحية الاجتماعية جعل الزكاة ركناً من أركان الدين، وناط بالدولة أخذها من الأغنياء القادرين، وتوزيعها على مستحقيها من الفقراء والمحتاجين بالعدل والإنصاف وفي كثير من التراحم والتعاطف. يقول تبارك وتعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلَّفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾.

وجعل لهم حقاً معلوماً في الغنائم التي يستولي عليها المسلمون وهم يقاتلون المشركين وفي الفيء، وهو كل ما يصل للمسلمين من المشركين من غير قتال، كالعشور، والجزية والخراج. ورغَّب الله سبحانه وتعالى الأغنياء وحثهم

على فعل الإحسان والبذل وانفاق الأموال في وجوه الخير، ووعدهم بأحسن الجزاء وأعظم الثواب، ومما جاء في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء﴾.

وأهتم الخليفة وأولو الأمر بتطبيق ما جاء في الرسالة المحمدية من نظم، وأصبح الخلفاء مسؤولين عن تأديب المنحرفين والفاسدين، وإنزال العقاب بهم، ضمن الحدود الشرعية التي شرعها الله في كتابه الحكيم ووضحها رسوله الكريم. فكل مذنب له عقوبة على قدر ذنبه، فمن قتل فجزاؤه القتل، وعلى أهله أن يقدموه. لأولي الأمر لينال عقابه: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾. وجاء في سورة البقرة أيضاً قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر، والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾.. ومن سرق فله عذاب شديد وعاقبة ذلك في قوله تعالى: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾. ومن روع الناس وقطع الطريق وشهر السلاح، فله عقاب عظيم. يقول سبحانه وتعالى: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع

أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾. ومن أتى فاحشة كالزنى فله جزاء شديد، يقول جلّ وعلا: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كلَّ واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ ولشارب الخمر جزاؤه وعقابه. وهكذا كانت الحدود في الإسلام وعلى هذا النحو كانت تعاليم السماء وقيم الدين الذي وحَّد وجمع وألَّف، وكان ذلك كله لخير الأمة وصالحها.

وقضى الإسلام على العوامل والدوافع التي كانت تنشىء الصعاليك وتدعوهم إلى التمرد والثورة، فساوى بين الناس، وجعل الفقراء في مأمن من العيش ولم يعد هناك خلعاء، إذ نزع الإسلام حق القبيلة في التصرف وأصبح هذا من واجب الدولة، فالدولة وحدها صاحبة الحق في إقامة الحدود على المذنبين. وقد سوى الإسلام بين أبناء الحرائر والأغربة وجعل لهم نفس الحقوق، وعليهم الواجبات نفسها.

أضف إلى ذلك سبباً آخر هو اشتغال العرب بالفتوح، ونشر الدين في آفاق الأرض. مما أتاح الفرصة أمام الفرسان

وهواة المغامرة لكي يثبتوا وجودهم، ويستغلوا شجاعتهم في المجال المشروع، حيث الثواب والأجر، والفوز بالغنائم. فالصعلوك أصبح فارساً في الجيوش الإسلامية، وربما جنى خيراً موفوراً ومالاً كثيراً، وربما امتلك الجواري والعبيد والدور والبساتين.

٢ ـ الصعاليك المخضرمين وتأثرهم بالاسلام

لم تنقل كتب التراجم أخباراً كثيرة عن الصعاليك المخضرمين، ولم تحمل إلينا كتب التاريخ كثيراً من أخبارهم. ويعود ذلك لسببين:

١ ـ قلة الصعاليك المخضرمين بالقياس إلى صعاليك الجاهلية.

٢ ـ ضعف حركة الصعلكة في صدر الإسلام.

وعلى قلة ما بين أيدينا من أخبار الصعاليك المخضرمين وأشعارهم في الشطر الثاني من حياتهم فإننا نستطيع أن نرى بوضوح عند نفرٍ منهم تأثرهم بالإسلام، واستجابتهم لتعاليمه. بحيث أنهم توقفوا عن شن الغارات، وقطع الطرق، وركنوا إلى الهدوء وابتعدوا عن حياة التمرد والثورة. إيماناً منهم أن الحياة الماضية قد انتهت، وأن عهد الظلم قد انتهى. وخير من يمثل هذا الجانب عندهم أبو خراش الهذلي، الذي كان «في الشطر الأول من حياته بالجاهلية صعلوكاً نشيطاً عاملاً». حيث سجل في شعره

أسباب تصعلكه، ودوافع الألم والفقر التي قادته إلى تلك الحالة. حيث التشرد والحرمان، والفقر والجوع، والصبر، والنفور من الغنى إذا كان ذلك يجمع بينه وبين الذل والظلم. ويقول في ذلك.

وإنّـي لأَثْـوي الـجـوعَ حـتـى يَـمَـلَّنـي
فَـيَـذْهَبَ لـم يَـدْنَسْ ثيـابـي ولا جِـرْمِي
وأغْـتَـبِـقُ الـمـاءَ الـقَـراحَ فـأكـتـفـي
إذا الـزادُ أمـسـى لـلـمَـزلَّـجِ ذا طـعـمِ
مـخـافـة أنْ أحـيـا بـرَغْـمٍ وذِلَّـة
ولَـلْـمَـوْتُ خَـيْـرٌ مِنْ حـيـاةٍ عـلـى رَغْـمِ

ويصف رفيقاً له، من الصعاليك الأشداء الأقوياء الذين رفضوا حياة العبودية والذل. وقد اجتمعا في مَرْقَبة خفية بالجبل يتربصون القوافل والناس استعداداً للغزو.

لَـسْـتُ لِـمُـرَّةَ إنْ لـم أوفِ مَـرْقَـبـةً
يـبـدو لي الـحَـرْثَ منـهـا والـمـقـاضيبُ
فـي ذاتِ ريـسـدٍ كَـذَلْق الـفـأسِ مُشْـرِفـةٍ
طـريـقـهـا سَـرَبٌ بـالـنـاس دُعْـبُـوبُ
بـصـاحـبٍ لا تُـنـالُ، الـدَّهْـرَ غِـرَّتُـهُ
إذا اقْـتَـلَى الـهَـدَف القِـنُّ الـمـعـازيبُ

بَعَثْتُهُ بسوادِ الليل يَرْقُبُني
إذ آثَرَ النوم والدفءَ المناجيب

هكذا كان أبو خراش في الجاهلية، معدماً مظلوماً متصعلكاً، يعيش على ما ترفده به الغارات والغزوات. وكان شعره صورة واضحة لحياته البائسة.

أما في الفترة الثانية المتصلة بالإسلام، حيث آمن وحسن إسلامه، وانقاد لتعاليم الدعوة الجديدة انقياداً وظهرت آثاره في سلوكه. فإذا هو لا يغزو ولا يغير ولا يثور للأخذ بالثأر، وكأنه لم يكن صعلوكاً. حتى إن آثار الإسلام ظهرت في شعره، إذ عزف عن أحاديث الفقر والتصعلك والغارات مع الرفاق إلّا أنه حزن على ساقه التي نهشتها حية بآخرة من عمره. وتلك الساق التي أسعفته في كثير من الأحيان في التخلص من أعدائه المتربصين به في أرجاء الجزيرة العربية.

لقد أهلكت حية بَطْنَ أنفٍ
على الأصحابِ ساقاً ذات فَضْل
فما تَرَكَتْ عَدُوّاً بين بُصْرَى
إلى صَنْعَاءَ يَطْلُبُهُ بِذَحْل

لقد أشاع أبو خراش في نفسه الطمأنينية والهدوء،

وعودها على الصبر والتمسك بالعدل والحق. ونسي البطش والطيش، وسطوة الصعاليك وفتكهم ونلاحظ ذلك أثر مقتل أخيه أو ابن عمه زهير بن العجوة يوم حنين على يد جميل بن معمر. وهنا لم يفعل أبو خراش شيئاً سوى رثائه له وتفجعه عليه، وذكر صفاته الحسنة وشمائله الجميلة. وقد صرح بأنه «غير قادر على المطالبة بثأره أو النهوض بقتل قاتله لتغير ظروف الحياة وقوانينها». حيث العدل والحق ووجوب المحافظة عليها. وإنه يشبه قواعد الدين الجديد وحدوده بالسلاسل التي أحاطت بالرقاب فإذا هو عاجز عن الفكاك منها والخروج عليها. ويقول في هذا:

فَليسَ كَعَهْدِ الدارِ يا أُمَّ مَالِكٍ
وَلَكِنْ أحاطتْ بالرِّقابِ السَّلاسِلُ
وعادَ الفَتَى كالكَهْلِ لَيْسَ بقائلٍ
سوى العَدْلِ شيئاً فاستراحَ العواذلُ

ونراه في صورة ثانية يرثي بها زهير بن العجوة، حيث أنه لم يكن يخشى قريشاً في الجاهلية، ولم يكن ليتخاذل عن أخذ ثأره منها. أما في الإسلام فإنه تغير، وصار ينظر إلى قريش بأنها مركز الرياسة والإمارة والسياسة مع إحساسه العميق بالحقد على جميل بن معمر الذي قتل قريبه ظلماً

وعدواناً «إذ كان بين الأسرى يوم حنين فضرب عنقه لإحنة كانت بينهما في الجاهلية». وهذا هو سبب غيظه وسخطه.

ويقول في هذا:

فَما كُنتُ أَخْشَى أَنْ تَنَالَ دماءَنا
قريشٌ ولمّا يُقْتَلُوا بقتيلِ
وأَبْرَحُ ما أَمَّرْتُمُ وَمَلَكْتُمُ
يَدَ الدَّهْرِ ما لم يُقْتَلُوا بِغَليلِ

ويلعب الشوق في وجدانه، حينما هاجر ابنه خراش في أيام عمر بن الخطاب وغزا مع المسلمين في البلاد البعيدة فاشتاق إليه، وتعلق به. وأحس بالوحدة والوحشة والضعف، وهو الهرم الكبير بعد مقتل إخوته، وانقراض أهله، وانعدام المصيف». وقدم إلى عمر وشكا إليه مشكلته مستلهماً حجته من آي الذكر الحكيم. فليس من الحكمة أن يتركه ابنه ويشترك في الغزو ليفوز بالشهادة في سبيل الله، في حين أنه شيخ كبير قد بلغ من العمر عتياً. ويقول في ذلك.

أَلَا فَاعلَمْ خِراشُ بِأَنَّ خَيْرَ الـ
مُهاجِرِ بَعْدِ هِجْرَتِهِ زَهِيْدُ
فَإِنَّكَ وابتغاءَ البِرِّ بَعْدي
كَمَخْضُوبِ اللَّبانِ ولا يَصِيدُ

وربما يكون قد استوحى معنى هذين البيتين من قوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾. وعند هذا قبل عمر بن الخطاب شفاعة الوالد وكتب بأن يعود خراش إلى أبيه، وألا يغزو «من كان له أب شيخ إلاّ بعد أن يأذن له».

وهذا جُرَيبة بن الأشيم، الذي كان «في الجاهلية أحد شياطين بني أسد وفتاكهم، وكان يغير على القوافل. فلما أسلم حسنت سيرته واستقام وعدل عن الإغارة والنهب. وراح يعلن التوبة، والإيمان والابتعاد عن الشر. ويقول:

بُـدِّلْـتُ دينـاً بَـعْـدَ دينٍ قَـدُمْ
كُـنْـتُ مـن الـدِّيْـنِ كـأنّـي حُـلُـمْ
يـا قـيِّـم الـدِّيْـن أَقِـمْـنـا نَـسْـتَـقِـمْ
فـإن أُصَـادِفْ مـأثـمـاً فَـلَـمْ أُلِـمْ

وهذا يزيد بن الصُّقَيْل العُقَيْلي، فإنه كان لصاً مشهوراً ببادية الحجاز، وبقي في حياة اللصوصية زمناً طويلاً، إلى أن مرّ به جيش وجهه عثمان بن عفان إلى الشام، فانضم إلى

جيش المسلمين وترك حياة التلصص، واستشهد في سبيل الله.
ومن شعره قبل وفاته، حيث أنه يعلن توبته، ويستغفر فيه لنفسه، قوله:

ألا قُلْ لأَرْبَابِ المخائِضِ أهْمِلُوا
فقد ثابَ مِمَّا تعلمون يَزِيدُ
وإنَّ امرءاً يَنْجُو مِنَ النارِ بَعْدَما
تَزَوَّدَ مِنْ أعمالِها لَسَعِيْدُ
إذا ما المنايا أَخْطَأتْكَ وصادَفَتْ
حَمِيمَكَ فاعْلَمْ أنَّها ستعودُ

فمن المؤكد أن الظروف الاجتماعية الجديدة هي التي حملت الشعراء الصعاليك على الابتعاد عن حياة الغزو والتلصص. حيث أنهم عادوا إلى المجتمع بعدما أصلح الإسلام بمبادئه الخلل الذي كان في الجاهلية، وعاش هؤلاء مؤمنين بالدين الجديد ونظمه وقوانينه.

ولا يعني هذا أن مجتمع صدر الإسلام قد محا من الوجود ظاهرة الحنين إلى الجاهلية وأيامها وأعمالها. فقد بقي بعض الصعاليك المخضرمين متصلين بالماضي يعيشون إما للهجاء والشر، وإما لقطع الطرق وسرقة الإبل والإغارة على القوافل إذ أن الإسلام لم يتعمق في قلوب هذه الفئة من

الصعاليك المخضرمين، ولا استقام معه سلوكهم. ونجد في هؤلاء فريقين.

١ ـ فريق جنح عن النهب والإغارة، ولكن ظل فيهم شر كثير ويمثل هذا الفريق أبو الطمحان القيني، وفضالة بن شريك.

ومن المعروف أن أبا الطمحان كان في الجاهلية «صعلوكاً يسرق الإبل». وكان «من طائفة الصعاليك الخلعاء». فقد خلعته قبيلته وطردته لسوء أخلاقه، مما جعله يستجير بأكثر من قوم، وجعل حياته دائمة الحركة لا تستقر في مكان. حتى أصبح مستهتراً بالحياة مستخفاً بها، مستهيناً بالموت. وعندما عاتبته زوجته على أعماله وغاراته صاح بها قائلاً:

لو كنتُ في رَيْمَانَ تَحْرُسُ بابَهُ
أراجيلُ أَحْبُوشٍ وأَغْضَفُ آلِفُ
إذاً لأتتني حَيْثُ كُنْتُ مَنِيَّتي
يَخُبُّ بها هادٍ بأمري قائِفُ
فمن رَهْبَةٍ آتي المتالِفَ سادِراً
وأَيَّةُ أرضٍ لَيْسَ فيها مَتالِفُ

أما في فترة إسلامه فإنه بقي يحن إلى الماضي. حتى

قال بعض النقاد عنه، بأنه إنسان لم يحسن إسلامه، وكانت عقيدته ضعيفة:

حَنَتْني حانياتُ الدَّهْرِ حَتّى
كأني خاتِلٌ أدْنُو لِصَيْد
قَصِيرُ الخطو يَحْسَبُ من رآني
ولست مُقَيَّداً أنّي بقيد

ومما روي عنه أنه قال هذين البيتين في آخر أيامه حيث يتذكر الحياة الماضية ويحن إليها وإلى التهالك على الملاهي حتى في أواخر أيامه. ويقول:

ألا عَلِّلاني قبل نَوْحِ النَّوائِحِ
وقبل نُشوز النَّفْسِ بين الجوانحِ
وقبل غدٍ يا لهفَ نفسي على غدِ
إذا راح أصحابي ولَستُ برائحِ

وهذه الأبيات التي وصلتنا تدل على خبث سريرته وعدم إسلامه بطريقة صحيحة إذ بقي للحياة الجاهلية أثر كبير في نفسه. وبقيت عقيدته ضعيفة، ونفسه مضطربة وبقي مرتبطاً بالماضي أكثر من ارتباطه بالحاضر.

أما فضالة بن شريك، الذي يصفه القدماء بأنه «كان شاعراً فاتكاً صعلوكاً مخضرماً أدرك الجاهلية والإسلام». وقد

انتشرت أخباره وأشعاره بين الناس ونستشف من تلك الأشعار أنه كان سيء الخلق، متسرعاً إلى الشر حتى انه أوقف شعره في الهجاء المقذع لأبناء الخلفاء والأمراء.

فالهجاء هو أهم مظهر من رواسب الصعلكة عند فضالة بن شريك، وهو هجاء مقذع، وزعه على غير واحد، دون مراعاة للحياة الجديدة وما فيها من عفاف ونبل وسَام عن الخصومات، أو استثمار لنهي الخلفاء عنه لما يثير في النفوس من العداوات. فقد هجا عاصم بن عمر بن الخطاب لأنه لم يبعث إليه بشيء من الهبات. وقال:

أَلَا أَيُّها الباغي القِرَى لَسْتَ واجداً
قِراكَ إذا ما بتَّ في دَارِ عَاصِمِ
إذا جِئْتَهُ تبغي القِرَى بَاتَ نائماً
بطيناً وأمْسَى ضَيْفُه غيرَ نائِمَ
فتىً من قريشٍ لا يَجَوْدُ بنائلٍ
ويَحْسَبُ أنَّ البُخْلَ ضَربةُ لازمِ

وبعد هذا الشعر اشتكاه عاصم إلى عمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة فطلبه فهرب إلى الشام ولحق بيزيد بن معاوية فاستجار به، فأمنه واستشفع له فامتدحه ونوّه ببني أمية.

وظلت نوازع الشر غلابة عليه، ومستبدة به. ويقال انه توجه إلى الكوفة وبايع عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير عليها، فلما طرده المختار الثقفي عنها هجاه وقال:

دَعَـا ابـنُ مُـطيـعٍ لـلبيـاعِ فـجئتُـهُ
إلـى بَيْعَةٍ قَـلْبي بـهـا غَـيْـرُ عَـارِفِ
ولـم يُـنْـسـمِ إذ بـايعتُـهُ منْ خليفـتي
ولـم يَشْتَـرِطْ إلاّ اشتـراطَ الـمجـازفِ
متى تلقَ أهـل الشـام في الخيـل تلقني
عـلى مُـقْـرَبٍ لا يُـزْدَهَـى بـالـمجـازفِ

ونراه يتدخل في شؤون الناس بشكل سافر. إذ أنه هجا رجلاً كوفياً تزوج امرأة وسأل في مهرها، كما هجا معه أهلها الذين ارتضوه زوجاً لها مع أنه فقير ضعيف ذليل، لا يقدر على إعالتها، ولا يفيد في الشدائد: ويقول:

أنـكحْـتُـمُ لا فـتـى دنـيـا يُـعَـاشُ بـه
ولا شـجـاعـاً إذا انشـقَّتْ عَـصَـا الـدِّين

إنه يتدخل بشؤون الناس، مبتغياً أن يسيروا كما يريد، ويحاول أن يخضع الجميع لمبادئه وقيمه التي تعلمها من الجاهلية، وفقاً لمذهب الصعلكة الذي آمن به وأوقف حياته من أجله.

والواضح أن أبا الطمحان القيني وفضالة بن شريك يمثلان الصعاليك الذين أقصروا بعد إسلامهم عن التصعلك القائم على الإغارة والغصب ولكنهما لم يستقيما كل الاستقامة.

٢ ـ فريق لم يتأثر بالإسلام أي تأثر.

وهذا الفريق من الصعاليك المخضرمين لم يتأثر بالإسلام ومبادئه وقيمه أي تأثر، وبقيت حياة هذا الفريق قائمة على الغزو والإغارة، بل ظلوا يزاولون نشاطهم وأعمالهم للسلب والنهب. ومن الطريف أن بعض أفراد هذه الفئة بقي يصرح بأن الفقر والحاجة والعجز عن إعالة الأبناء هي التي دفعته إلى احتراف اللصوصية وعلى رأسهم قَرْعان بن الأعرف التميمي، الذي كان شاعراً لصاً يغير على إبل الناس في صدر حياته بالجاهلية «وفي خاتمتها بعد أن أسلم وكبر». ويقول:

يقولُ رِجَالٌ إن فَرْعانَ فاجِرٌ
وَلِلّه أعطاني بَنِيَّ ومالِيا

فأربعةٌ مثلُ الصُّقور وأربعاً
مَراضِيعَ قد وَفَّيْنَ شُعْثاً ثمانيا

إذا اصطنعوا لا يَخْبئُون لغائبٍ
طعاماً ولا يَرْعَوْنَ من كان نائيا

ومن الصعاليك الذين كانوا يترصدون الناس، لينقضوا عليهم ويسلبوا أموالهم شبيب بن كريب الطائي. فقد كان يقطع الطرق أيام علي بن أبي طالب ولما انتهى أمره إليه، وعلم أنه يقطع الطرق على مشارف الكوفة بعث إليه أحمر بن شميط العجلي، وأخاه في فوارس فهرب وأنشأ يقول:

ولَمَّا أنْ رأيتُ ابني شُمَيْط
بِسِكَّةِ طَيِّءٍ والباب دوني
تَجَلَّلت العَصَا وعَلِمْتُ أنِّي
رَهِينُ مُخَيَّسٍ إن يثقفوني
ولو أنظرتُهُمْ شيئاً قليلاً
لساقوني إلى شَيْخ بطين

وأخبار هذا الفريق من الشعراء الصعاليك، قليلة ونادرة جداً. لكن الملاحظ أنهم بدأوا يشاركون في الحياة السياسية، وينحازون إلى فريق ضد فريق. لكن حركة الصعلكة قد ضعفت في صدر الإسلام ضعفاً شديداً، لأن الإسلام استطاع أن يزيل الأسباب التي كانت تخلق الصعاليك. وسوى بين الناس، وأعطى كل ذي حق حقه. ووفر للناس الحياة الكريمة. ووضع القوانين الاجتماعية العادلة. أمام هذا العطاء والسمو في الحكم والإدارة ندرت

حركة الصعلكة ولم يبق منها سوى أشخاص معدودين، لم يتأثروا بالإسلام،وبقيت الروح الجاهلية مسيطرة تحركهم حتى في آخر لحظة من لحظات حياتهم.

أثر البيئة في ظهور حركة الصعاليك في العصر الأموي:

١ - الحياة الاقتصادية:

لم تكن الحياة الاقتصادية في عصر بني أمية سليمة كل السلامة. ومستقرة كل الاستقرار، وإنما «كانت مختلة بعض الاختلال ويعود سبب ذلك إلى:

أ - حاجة الخلفاء الأمويين إلى المال وإنفاقه على «دورهم وقصورهم وعطورهم وحواشيهم وأعوانهم وشعرائهم». وكان قسم منه يذهب إلى «تجهيز الجيوش تلو الجيوش للقضاء على الخارجين عليهم والثائرين بهم».

ب - استيلاء بعض أعداء بني أمية على بعض الأقطار واحتجاز الأموال عن الدولة في دمشق. وهذا ما حدث مع عبد الله بن الزبير الذي احتجز أموال الحجاز والعراق ومصر.

ج - إغارة بعض الخارجين على أموال الدولة وسلبها، كما حصل عند الصعلوك عبيد الله بن الحر الجعفي «الذي

كان يغير على أموال الدولة، ويستصفي لنفسه ولإخوانه من الصعاليك خراج كثير من الكُوَر».

د ـ قسوة العمال الذين كانوا يتولون جباية الصدقات والخراج وانحرافهم. وللدلالة على ذلك يروي البلاذري قصيدة طويلة ليزيد بن الصَّعِق يشكو فيها إلى عمر بن الخطاب من الولاة وعمال الخراج في كثير من الأمصار، ممن استغلوا الناس «واستأثروا بالخيرات وطيبات الحياة لأنفسهم، فإذا هم مترفون أغنياء وإذا غيرهم من سواد الرعية فقراء بؤساء».

وهذه القسوة من العمال لم تكن في الجزيرة العربية فقط، بل تعدتها إلى العراق. حتى ان بعض هؤلاء العمال كان يتفاخر بإرهاقه الرعية، خاصة زياد بن أبيه الذي يقول لمعاوية: «دوخت العراق، وجبيت برها وبحرها وغثها وسمينها، وحملتُ إليك لبَّها وقشورها»... ولم يكن الحجاج بن يوسف أقل بطشاً من زياد، بل زاده في ذلك، حتى أصبح مضرب المثل في البطش والقسوة «حتى ان أهل الذمة لم يجدوا خلاصاً من قسوته وبطشه إلا أن يدخلوا في الإسلام، وينتقلوا إلى الأمصار» مما جعل موظفيه يشكون إليه من انكسار الخراج. ومما جعله يكتب إلى البصرة وغيرها: «أن

من كـان له أصـل في قريـة فليخرج إليهـا، فخرج النـاس وعسكروا، وأخذوا يبكون وينادون وامحمداه، وامحمداه ولا يدرون أين يذهبون».

وكان يزيـد بن أبي مسلم عامـل عبد الملك على إفريقية، يسوم الناس ألوان العذاب، مما دفعهم إلى الثورة عليه وقتله. وكذلك كانت حالة بلاد فارس إذ كان العمال يبطشون ويأخذون بقسوة، لا يردعهم ضمير ولا دين.

ولم يقف ظلم العمال والسعاة عند حد تحصيل أموال الدولة، بل تعداه إلى فرض ضـرائب خاصة بهم. وبهذا كوّنوا لأنفسـهم ثروات ضخمة، حتى ذاع بين الناس «أن من تولى إمارة أو كورة فإنما هي نصيبه من الدنيا لكي يفوز منها بما يريد من الأموال». وفي ذلك يقول أَنَسُ بن أبي أناس لحارثة بن بـدرٍ عامل زياد بن أبيه على سُرّق بالأهواز:

أحـار بـنَ بَـدْرٍ قـد وَلِـيـتَ إمـارةً
فكـنْ جُـرذاً فـيـهـا تـخُـونُ وتَـسْـرقُ

وَبَـاه تـمـيـمـاً بـالـغـنـى إنّ لـلغَنَـى
لـسـانـاً بـه الـمـرءُ الـهَـيُـوبَـة يـنـطقُ

فـلا تَـحْقِـرَنْ يـا حـار شيئـاً أصَبْتَـهُ
فَـحَـظُّك من مُـلْكِ الـعِـرَاقَـيْـن سُـرَّق

ولم يكتف العمال بالسرقة وادخار الأموال وجمعها، بل كانوا يستدينون من بيت المال. وللدلالة على ذلك ننقل بعض الأخبار التي وردت في بعض كتب التاريخ والتراجم. فمثلاً كانت ثروة عبد الرحمن بن زياد والي خراسان لمعاوية سنة ثمان وخمسين «ما يكفيه مائة سنة في كلِّ يوم ألف درهم». وكان عبد الله بن عبد الملك بن مروان في أثناء ولايته على مصر سنة خمس وثمانين «مشهوراً بالجور كما كان يرتشي ويأخذ الأموال من الخراج وغيره». وحينما صرف الحجاج المهلب بن أبي صفرة عن الأهواز سنة ثمان وستين كان «مديناً لبيت المال بألف ألف درهم» ومثله يزيد بن المهلب، فإنه عندما نحّي عن خراسان كان عليه لبيت المال «ستة آلاف ألف درهم».

ولهذا أصبح كلّ خليفة يحاسب عمال الخليفة الذي سبقه «ويعذبهم أشد العذاب لاستخلاص الأموال منهم». فحين عزل الحجاج يزيد بن المهلب وسائر إخوته عن خراسان أشخصهم الوالي الجديد إليه، «وطالبهم بستة آلاف ألف درهم ونكّل بهم» ولما مات الحجاج وولي سليمان بن عبد الملك قدّم يزيد بن المهلب وخصه، ودفع إليه كل أصحاب الحجاج وغيرهم «وأمره بتعذيبهم حتى يستخرج الأموال منهم، وتتبع سليمان بنفسه موظفي الحجاج وسامهم سوء العذاب».

ويقول اليعقوبي: «حين تولى عمر بن عبد العزيز عزل بدوره يزيد بن المهلب وعذبه وطالبه بعشرين ألف درهم، وعزل يزيد بن عبد الملك أيضاً عمال عمر بن عبد العزيز... وصرف هشام بن عبد الملك خالداً القسري عن العراق وولى عليه يوسف بن عمرو الثقفي، فقبض على خالد ورفاقه وأخذهم وبطش بهم حتى مات أكثرهم في يده».

هـ ـ موقف القبائل والأمصار من البيت الأموي:

من المعروف تاريخياً أن القبائل وكثيراً من الأمصار انحازوا إلى خصوم البيت الأموي السياسيين. وأكثروا من الشغب والثورات، حتى نالوا الظلم والقسوة من العمال الذين «كانوا يتشددون في استيفاء الصدقات والخراج منهم دون نظر إلى إملاقهم وجدب أرضهم، مثل قبيلة نمير، وقبيلة تميم، وأهل العراق» كما حرم هؤلاء من أعطيات بيت المال. وهذا ما فعله معاوية معهم، إذ أنه لم يعط إلاّ أهل اليمن أنصاره.

وحينما كان بعض الخلفاء يفكر في استرضاء القبائل الثائرة بزيادة العطاء لها كان أمره لا ينفذ من قبل عماله.

ومن ذلك ما رواه صاحب الأغاني عن معاوية حينما أمر «لأهل الكوفة بزيادة عشرة دنانير في أعطياتهم» وعامله حينئذٍ على الكوفة النعمان بن بشير «وكان عثمانياً، كما كان يكره أهل الكوفة لميلهم إلى علي» فأبى النعمان أن يصرفها، فكلموه بها فمنعها فصاح به عبد الله بن ضَمّامٍ السَّلولي قائلاً:

زيــادتــنــا نُــعْــمــانَ لا تَــحْــرِمَــنَّــنــا
خَـفِ الله فـيـنـا والـكـتـابَ الـذي تَـتْـلُو

فـإنـك قـد حُـمِّـلْـتَ مِـنَّـا أمـانـةً
بمـا عَجِـزَتْ عَنْـهُ الصَّلاَخِمَـةُ البُـزْلُ[1]

وإنْ يَـكُ بـابُ الـشَّـرِّ تُـحْـسِـنُ فَـتْـحَـهُ
فـلا يَـكُ بـابُ الـخَـيْـرِ لـيسَ لـه قُـفْـلُ

وتبرز كتب التاريخ في طياتها أخباراً كثيرة عن ظلم الولاة للرعية. ويمكن القول إن حكام بني أمية لم يوفروا أسباب الحياة السعيدة للسواد الأعظم من الشعب بل كانت

---

(١) الصلاخمة: جمع صلخم وهو البعير الشديد الماضي. البزل جمع بزول وهو البعير إذا فطر نابه وانشق في السنة التاسعة. يريدون أنه مستكمل الشباب، مستجمع القوة.

أعطياتهم وهباتهم تذهب لأنصارهم وأعوانهم. وكانوا يشذدون على خصومهم. ومن هنا نشأ في المجتمع الأموي طبقتان: طبقة غنية وقوامها الخلفاء والأمراء والعمال والولاة والقبائل الموالية. وطبقة فقيرة، كانت تعمل لتدفع الضرائب الكثيرة للدولة. وهؤلاء الفقراء انقسموا بدورهم إلى فئتين، الأولى، ارتضت حياة الفقر والبؤس، وعاشت في استكانة وحرمان. ولم تستعمل سوى الكلمة علّها ترفع الظلم والقهر. وكانت الشكوى على لسان عقبة بن هبيرة الأسدي يستصرخ معاوية لكيْ يرحم قومه ويعدل بينهم. وفي ذلك يقول:

مُعاويَ إنَّنا بَشَرٌ فاسجِحْ
فَلَسْنَا بالجبالِ ولا الحديدِ[1]
فَهَبْهَا أُمَّةً هلكتْ ضَيَاعاً
يَزيدُ أميرُهَا وأبُو يزيدِ
أكَلْتُمْ أرضَنَا فَجَرَدْتُمُوهَا
فَهَلْ مِنْ قائمٍ أو مِنْ حَصِيْدِ

وترتفع الشكوى مدوية في عهد عبد الملك بن مروان مطالبة بالأخذ على أيدي السعاة المستبدين. ومن ذلك قول

---

(١) أسجح: خلقك وسهله وكن سمحاً.

عمرو بن أحمر الباهلي يخاطب يحيى بن الحكم والي المدينة لعبد الملك، بقوله:

إنْ نحنُ إلاّ أناسٌ أهلُ سائمةٍ
ما إنْ لنا مِنْ دونها حَرْثٌ ولا غُرَرُ[1]

ملُّوا البلادَ وعَلَّتْهُمْ وأحرقهم
ظلمُ السُّعاةِ وبادَ الماءُ والشجرُ

إنْ لا تداركْهُمْ تُصْبِحْ منازِلُهمْ
قَفْرا تَبيضُ على أرجائها الحُمُرُ[2]

وأشهر تلك الشكاوى التي أوردها البغدادي في خزانة الأدب. تلك التي رفعها الراعي إلى الخليفة عبد الملك نفسه حيث وفد الراعي على الخليفة ورفع إليه بلسان قومه بطش الولاة والسعاة وعسفهم، الذين أوقعوا كارثة الجوع بالقبيلة كلّها.

ومما قاله:

أبْلِغْ أميرَ المؤمنينَ رسالةً
تشكو إليك مَضَلَّةً وعَويلا

أخليفةَ الرحمن إنّا مَعْشَرٌ
حُنفاء نَسْجُدُ بُكْرَةً وأصِيلا

---

(١) الغرر: جمع غرة وهو العبد.

(٢) الحمر: نوع من الطيور.

عَـرَبٌ نـرى لله فـي أمـوالـنـا
حـقَّ الـزكـاةِ مُـنَـزَّلًا تَـنْـزِيـلاً
إنَّ الـسـعـاةَ عَـصَـوْكَ يـوم أمـرتَـهُـمْ
وأتـوا دَوَاهِـي لـو عَـلِمْـتَ وغُـولا
أَخَـذُوا الـعـريـفَ فَـقَـطَّعـوا حَيْزُومَـه
بـالأَصْـبَـحِـيَّـةِ قـائِـمـاً مَـغْـلُولا[1]
حـتـى إذا لـم يَـتْـرُكُـوا لِـعَـظَـامِـهِ
لَـحْـمـاً ولا لِـفُـؤادِهِ مَـعْـقُـولا
جَـاءُوا بِـصَـكِّـهُـم وأَحْـدَبَ أَسْـأَرَتْ
مـنـه الـسِّـيـاطُ يَـرَاعَـةً إجـفـيـلا[2]
أخـذوا حَـمُـولَـتَـهُ وأصـبـحَ قـاعـداً
لا يَـسْـتَـطِيْـعُ عـن الـديـارِ حَـويـلا
أخـلـيـفـةَ الـرَّحـمـنِ إنَّ عـشـيـرتـي
أمـسـى سَـوامُـهُـم عِـزيـنَ فُـلُولا[3]
وأتَـاهَـمُ يـحـيـى فَـشَـدَّ عـلـيـهـم
عَـقْـداً يـراه الـمـسـلـمـون ثَـقِـيـلاً

---

(١) معلق الحيزوم: الصدر. الأصبحية: السياط. العريف: شيخ القبيلة.
(٢) الصك: الصحيفة. الأحدب: الشيخ الذي تقوس ظهره. اليراعة والإجفيل: الجبان. أسأرت: أبقت.
(٣) عزين: جماعات متفرقة. السوام: الإبل الراعية.

كُـتُـبـاً تـركْـنَ غَـنِـيَّـهُـمْ ذا عَـيْـلَةٍ

بـعـد الـغِـنـى وفـقـيـرَهُـم مَـهْـزُولا[1]

إنَّ الـذيـنَ أمـرتـهـم أنْ يـعـدلـوا

لـم يَـفْـعَـلُوا مـمَّـا أَمَـرْتَ فـتـيـلا

فـادفـعْ مـظالـمَ عَـيَّـلَتْ أبـنـاءَهـا

عـنَّـا وانْـقِـذْ شِـلْوَنـا الـمـأكـولا[2]

إن هذه القصيدة لوحة تنطق بظلم الولاة والسعاة. الذين لا يؤمنون إلاّ بالقهر والارهاب، في سبيل تحقيق أهدافهم وغناهم، ومصلحتهم الخاصة. ولا يلتفتون إلى حال تلك القبيلة التي أصابها الجدب والإملاق.

وتستمر المظالم، وتكثر الشكايات حتى في عهد الثائرين على بني أمية، أمثال عبد الله بن الزبير الذي بايعه أهل الحجاز والعراق ومصر، على الشورى والعدل والخير. ونسمع الشكوى في أيامه من الموالي والعرب في وقت واحد. فهذا أبو حرَّة مولى خزاعة يتظلم والموالي من الفقر في أيام عبد الله بن الزبير. ويقول:

أَبْـلغْ أُمَـيَّـةَ عـني إنْ عَـرَضْـتَ لـهـا

وابـنَ الـزُّبَـيْـر وأَبْـلِغْ ذلـك الـعَـرَبـا

(١) العيلة: الفقر.

(٢) عيلت: افقرت وبرحت. الشلو: العضو.

إنَّ الـمـوالي أَضْـحَـتْ وهـي عَـاتِبَـةٌ
على الخليفـةِ تشكـو الـجـوعَ والحَـرَبـا

وتستمر هذه المظالم حتى في عهد عمر بن عبد العزيز الذي حاول أن يسير على هدي عمر بن الخطاب «بأن الله بعث محمداً ﷺ داعياً ولم يبعثه جابياً». وحاول أن يقيم العدل بين الناس، وشدد على عماله «أن يسوسوا الناس بالإحسان والعدل والرفق» إلّا أنه لم يوفق كل التوفيق أمام طغيان شيطان المال عند بعض العمال على حسن الإيمان وسلامة الدين. وهذا ما دفع كعب بن معدان الأشقري ليرفع صوته وشكوته إلى عمر بن عبد العزيز ويقول:

إنْ كـنـتَ تَـحْـفَظُ مـا يـلـيـكَ فـإنَّـمـا
عُـمَّـالُ أرْضِـكَ بـالـبـلادِ ذِئـابُ
لـن يَـسْـتَـجِـيـبُـوا لـلذي تَـدْعُـو لـه
حـتـى تُـجَـلَّدَ بـالـسُّـيـوفِ رِقَـابُ
بـأكُـفُ مُـنْـصَـلـتـيـن أَهْـل بـصـائـرٍ
فـي وَقْـعِـهِـنَّ مَـزَاجِـرٌ وعـقـابُ

واشتد الجور في أيام يزيد بن عبد الملك، الذي نقض عدل عمر بن عبد العزيز وكتب إلى ولاته وعماله: «أما بعد فإن عمر كان مغروراً غررتموه أنتم وأصحابكم، وقد رأيت

كتبكم إليه في انكسار الخراج والضريبة. فإذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون في عهده، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى، أخصبوا أم أجدبوا، أحبوا أم كرهوا، حَيَوْا أم ماتوا والسلام».

وكان يزيد بحاجة إلى المال حتى ينفق على مجالس لهوه وغنائه، حتى وصفه القدماء بأنه «خليع بني أمية».

أما الطائفة الثانية من الفقراء، فقد ثارت في وجه الظلم والطغيان، وأبت الاستكانة والضيم، وسلكت سبيل الإغارة على القوافل وسلب أموالها. ومن هنا نشأ الصعاليك في العصر الأموي. ذلك أن الفقر هو الذي حملهم على التصعلك، وعلى اختيار سبيلهم في الإغارة والنهب اسلوباً للحياة. والذي يؤكد هذا قول صاحب الأغاني من أن «سعيد بن عثمان بن عفان مرّ وهو متوجه إلى خراسان بمالك بن الريب ورفاقه من اللصوص والصعاليك، وكانوا يقطعون السبيل، ويغيرون على الحجيج بالبادية فقال له: ويحك تفسد نفسك بقطع الطريق، وما يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العبث والفساد؟ فقال له: يدعوني إليه العجز عن المعالي، ومساواة ذوي المروءات ومكافأة الإخوان».

والواضح أن مالك بن الريب أتخذ هذا السبيل، ومال إلى التصعلك والتلصص حينما أحسَّ بفروقات

اجتماعية بينه وبين الموسرين. ويورد صاحب الأغاني عن مالك نفسه أقوالاً تصور فساد الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وكيف كانت سبب تصعلكه:

أَحَقًّا على السُّلطان أمَّا الذي له
فَيُعْطَى وأمَّا ما عليه فَيَمْنَعُ
إذا ما جَعَلْتُ الرَّمْلَ بيني وبَيْنَهُ
وأَعْرَضَ نَهْبٌ بينَ يَبْرِينَ بَلْقَعُ[1]
فشأنَكُمُ يا آل مروانَ فاطلُبُوا
سقَاطِي فما فيه لباغِيهِ مَطْمَعُ[2]

والملاحظ أن حركة التصعلك كانت تشتد وتقوى في أوقات الظلم واشتداد البغي والجور. وقد أورد الجاحظ في المحاسن والأضداد من أن «جحدر بن مالك الحنفي كان لصاً فاتكاً شجاعاً شاعراً، وكان يغير على أهل هجر وناحيتها. فبلغ ذلك الحجاج. فكتب إلى عامله باليمامة يوبخه لتلاعب جحدر به، ويأمره بأن يشدد في طلبه حتى يظفر به، فاحتال العامل له حتى قبض عليه، وبعث به إلى الحجاج، فقال له ما

(١) أعرض: امتد وترامى. السهب: الأرض الواسعة. يبرين رمل لا تدرك أطرافه البلقع: الأرض الفقر.
(٢) السقاط: ما يحملونه من التمر. يريد إنه فقير لا يملك شيئاً يرغب فيه.

حملك على ما بلغني منك؟ فقال: جرأة الجنان، وجفوة السلطان، وكلب الزمان».

فكلما اشتدت الأزمات الاقتصادية، وزادت الهوة بين الأغنياء والفقراء، واشتد الجور والبغي، والظلم والتعسف تطورت حركة الصعاليك وكبرت، وزاد خطرها في المجتمع الأموي. وبرز ذلك وبشكل خاص أيام عبد الملك بن مروان، الذي ظهر في عصره أكثر من لص وصعلوك، من أمثال: طهمان بن عمرو الكلابي، والسمهري بن بشر العكلي، وجحدر بن مالك الحنفي.

والشيء الذي نود الإشارة إليه هو أن هؤلاء الصعاليك كانوا من قبائل تناقض السياسة الأموية، وتخالف أمورهم وأوامرهم، إذ كانوا يناصبون السلطة العداء، ويعملون على تقويض حكم بني أمية. وخير مثال على ذلك قبيلة تميم، التي عاشت في فوضى وعدم انصياع للنظام. وكانت تقف بجانب أي حركة ضد النظام القائم، إذ وقفت بجانب الخوارج الذين حاربوا الدولة فترة طويلة من الزمن. وظهر من تميم قطري بن الفجاءة أحد زعماء فرقة الأزارقة «ومنها كان جمهور أتباعه الذين قادهم، وحارب بهم جيوش الأمويين وقوادهم نيفاً وعشر سنين» وفي المقابل، ضيّق الأمويون على

تميم من الناحية المادية «إذ تعسفوا في جباية الصدقات منها، كما حرموها من العطاء». فاشتد الفقر عليها، وتعدد بؤساؤها مما حدا بكثير منهم إلى احتراف التصعلك والتلصص. فمن لصوصها وصعاليكها الفقراء. مالك بن الريب المازني، وعرقل السعدي، وأبو حردبة المازني ومسعود بن خرشة، وعبد الله بن الأحدب السعدي، وعبيد بن أيوب العنبري وأبو النشناش «والذي كان يغير على القبائل والقوافل في شذاذ من العرب بين طريق الحجاز والشام» وفي هذا يقول:

وسائلةٍ أينَ ارتحالي وسائلٍ
ومنْ يَسْأَلِ الصعلوكَ أينَ مَذَاهِبُهْ

مَذَاهِبُهُ أَنَّ الفِجاجَ عَرِيضَةٌ
إذا ضَنَّ عنه بالنَّوَال أقاربُهْ

إذا المرءُ لم يُسْرِحْ سَواماً ولم، يُرِحْ
سَواماً ولم يَبْسُطْ له الوَجْهَ صَاحِبُهْ[1]

فَلَلْمَوْتُ خير لِلْفَتَى مِنْ قُعُودِهِ
عَديماً ومنْ مَولىً تُعافُ مَشَارِبُهْ

وَدَوِيَّة قَفْرٍ يَحارُبها القَطَا
سَرَتْ بأبي النَشْنَاشِ فيها رَكَائِبُهْ[2]

(١) السوّام: الماشية من إبل وغيرها.
(٢) الدوّية القفر: الصحراء الخالية.

لِـيُـدْرِكَ ثـأراً أو لـيـكـسـبَ مَـغْـنَـمـاً

ألا إنَّ هـذا الـدَّهْـرَ تَتْـرَى عَجَـائِبُـهْ[1]

إنه يصور فقره، وبخل أقاربه عليه، حينما ابتعدوا عنه وأشاحوا بوجوههم عن وجهه. فضاق بالحياة معدماً منبوذاً، وفضل الموت على حياة الذل والقهر وآثر أن يسلك دروب المهالك والصعاب، ليصيب المغانم أو يموت دون هدفه.

وآخر صعاليك العصر الأموي هو تميمي أيضاً وهو الأحيمر السعدي. وقد عبر عن مشكلته وفقره في نوادر كثيرة، فيها الكثير من الروعة والدقة.

---

(١) تترس عجائبه: أي هي تتكرّر حيناً بعد حين.

٢ - الحياة الاجتماعية:

من الواضح تاريخياً أن عادات الجاهلية بقيت تسري في مفاصل الحياة الاجتماعية في العصر الأموي. والحق أن بعض البيئات الإسلامية تغيرت حياتها وتطورت مثل مكة والمدينة اللتين كان للظروف السياسية أثر واضح في غناهما وفي «إقبال الفتيان والشباب على الملاهي فيهما». ودمشق عاصمة الخلافة ومستقر الخلفاء الذين أسرفوا في تشييد القصور «واقتناء كل طريف من فاخر المتاع، والإقبال على الملاهي». حتى انفصل هؤلاء النفر من أبناء الطبقة الحاكمة، ومن أبناء الأسر الارستقراطية الثرية عن المجتمع البدوي. إلّا أن هذا التطور لم يشمل كل البيئات الإسلامية، كما أن القبائل التي لم تبرح منازلها الأصلية بالجزيرة العربية أو التي هاجرت إلى مواطن جديدة ظلت تحيا حياة فيها كثير من آثار الماضي ومظاهره حتى ان بعض الخلفاء عني بإرسال أبنائهم إلى البادية ليكتسبوا منها الخلق العربي الرفيع، ويتمثلوا الحياة البدوية، ويفقهوا اللغة العربية فقهاً دقيقاً. وبالغ بعض الباحثين في تصوير هذه الناحية

مبالغة شديدة، حتى وصف بعضهم دولة بني أمية، بأنها «كانت أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة» أما الجاحظ فيصفها بأنها كانت «عربية أعرابية»، وأما القبائل العربية في ذلك العصر، فقد خضعت لسلطة الدولة من جهة، وبقيت تمارس حياتها الرعوية وعادتها من جهة ثانية إذ أنها بقيت متمسكة إلى حد بعيد بعادات الجاهلية وموروثاتها حتى ان القبائل التي هاجرت من شبه جزيرة العرب بقيت في ظل عاداتها الرعوية، وحنينها إلى الترحال من مكان إلى آخر. وفي هذا يقول أبو الفرج: «إنّ تغلب كانت بدواً بالجزيرة لا حاضرة لها». والمتصفح لكتب الأدب يرى الحنين إلى الماضي، حنين الأعرابي إلى صحرائه وحياته القائمة على الترحال والتنقل، ونفوره من الاستقرار في بيئة واحدة، في حياة هادئة ومستقرة. وقد جمع ياقوت الحموي في «معجم البلدان»، أشعاراً كثيرة، تعبر عن تلك الظاهرة الموروثة في حياة الإنسان العربي في ذلك الوقت. وظاهرة الحنين إلى الصحراء تبدو في قول بعض الشعراء:

أُكَرِّرُ طَرْفي نَحْوَ نَجْدٍ وإنَّني
إليه وإنْ لم يُدْرِكِ الطَّرْفُ أَنْظُرُ

حَنِيناً إلى أرض كأنَّ تُرابَها
إذا أُمْطَرَتْ عُودٌ ومِسْكٌ وعَنْبَرُ

بـلادٌ كـأنَّ الأُقْـحُـوان بـروضـةٍ
ونـورُ الأقـاصي وشْيُ بُـرْدٍ مُحبَّـرُ

•

أحِنُّ إلى أرضِ الحجـازِ وحـاجتي
خيـامٌ بِنَجْدٍ دونهـا الـطَّرْفُ يَقْصُـرُ

وحنين البدوي إلى الصحراء لم ينقطع لحظة في عصر بني أمية. حتى أصبح ظاهرة من الظواهر. ممّا لفت انتباه المؤرخين له حتى خصه ابن الشجري بفصل كبير في حماسته وأفرد له الجاحظ رسالة طويلة بعنوان «الحنين إلى الأوطان» وقد فضل واحد كالفرزدق حياة البداوة على حياة المدنية. ويبدو ذلك بقوله:

لَفَلْجٌ وصحـراؤهُ لـو سِرْتُ فيهمـا
أَحَبُّ إلينـا من دُجَيـلٍ وأفْضَـلُ[1]

وراحـلةٍ قَـدْ عَـوَّدتـني ركـوبَـهـا
ومـا كُنْتُ رَكَّاباً لها حينَ تُـرْحَـلُ[2]

---

(١) فلج: وادٍ من أودية تميم. دجيل: من أنهار دجلة.
(٢) الراحلة: السفينة. ترحل: تجهز للسفر.

قـوائِمُهـا أيـدي الـرِّجـال إذا انتحتْ
وتَحْمِـلُ مَنْ فيهـا قُعـوداً وتُحْمَـلُ[1]

وإلى جانبْ الحنين إلى البادية، والصحراء المترامية، والحياة البدوية، تبرز ظاهرة المحافظة على الأنساب، والحرص على الوحدة والتعاون من أجل صالح القبيلة. وظلت سلطة سيد القبيلة نافذة مطاعة، حتى في القبائل التي عاشت حياة الاستقرار في المدن. فكيف تلك التي بقيت في مواطنها الأصلية في بيئة الصحراء البدوية، حيث لا سلطة مركزية، ولا سلطان تعترف به سوى سلطان شيخ القبيلة.

وتشبثت القبائل العربية بأهم قانون جاهلي وهو الحرص على الأنساب، والتعصب لأبنائها ضد أبناء القبائل الأخرى. ممّا دفع بالعصبيات إلى واجهة الحياة الاجتماعية وبدا التنافر بين القبائل، والحروب التي لم تهدأ قط. إذ أن بعض عشائر قيس مثل كلاب وسليم نزحت من نجد إلى الشمال، وزاحمت قبيلة كلب وغيرها من القبائل اليمنية في الشام، وقبيلة تغلب في الجزيرة «وكان ذلك سبب خصام قبلي واسع بينهما على المراعي والسياسة». فقد كانت قبيلة كلب مؤيدة للأمويين، وكذلك كانت قبيلة تغلب. وكانت القبائل القيسية

---

(١) القوائم: المجاذيف.

تناهض الأمويين والقبائل التي تساندهم أمثال كلب وتغلب. وقد انضمت القبائل القيسية إلى ابن الزبير بمكة وساعدته في حروبه ضد البيت الأموي. وتبقى الاضطرابات حتى يتغلب مروان بن الحكم وبمساعدة تغلب وكلب على القبائل القيسية في موقعة مرج راهط المشهورة. ويقتل زعيمها الضحاك بن قيس. ولكن قيساً لم تستكن بعد مقتله، بل امتلأت قلوبها على بني أمية وأنصارهم حقداً وغضباً، وتزعمها بالجزيرة زفر بن الحارث وانضم إليه عمير بن الحباب الذي أخذ يغير على كلب غارات متوالية، كما أخذ يغير على تغلب وينكل بها، غير أنها فتكت به سنة سبعين، وتمكن زفر بن الحارث من الثأر له في موقعة مرج الكحيل، حيث هزم تغلب هزيمة نكراء. واصطدمت تميم بالأزد في البصرة، وتنازعت معها على الامارة، وقتلت سيدها مسعود بن عمرو، فثارت ثائرة الأزد غير أن الأحنف بن قيس سيد تميم أصلح بحكمته بين القبيلتين المخاصمتين.

وإذا كانت السياسة قد تدخلت في الصراع بين القيسية واليمنية في الشام والجزيرة والبصرة وخراسان فإن القبائل البدوية التي ظلت تعيش في نجد كانت تتشاجر بسبب تضارب مصالحها الاقتصادية وكانت تتقاتل أشد «قتال وأشنعه حتى لتسيل الدماء وتكثر الثارات».

وأحيت هذه الحروب أهم قانون جاهلي، وهو الأخذ بالثأر، الذي هدمه الإسلام وجعله من حق الدولة. وظهر قانون الجوار والاستجارة كما كان في الجاهلية، وتتحدث الأخبار أن الفرزدق كان يجير كل من لاذ بقبر أبيه على شاكلة ما كان يجير الجاهليون من عاذ بقبور آبائهم وأجدادهم.

ومن طريف ما يروى أن امرأة استجارت بقبر والد الفرزدق، وأحضرت منه حصيات معها، وطلبت منه أن يتوسط لها عند تميم بن زيد والي السند للحجاج، الذي أخرج معه وحيدها لعله يرده إليها، فكتب إليه:

تميمَ بنَ زيدٍ لا تكونَنَّ حاجَتي
بظَهْرٍ فلا يَعْيَا عليَّ جَوَابُها

أَتَتْني فَعَاذَتْ يا تميمُ بغالبٍ
وبالحُفْرَةِ السَّافي عليها تَرابُها

ويقال إن تميماً استجاب له، وأرجع ابنها إليها.

وبرز أيضاً قانون الخلع الذي كان معمولاً به في الجاهلية، إذ أخذت القبائل تخلع بعض أو أحد أفرادها «إما لكثرة جناياته فيها أو على غيرها، وإما لسوء سلوكه الاجتماعي والأخلاقي» كما عادت إلى إعلان هذا الخلع على الناس «حتى لا تُؤخذ بجرائر من خلعته منها»...

ويشكو هؤلاء الخلعاء الأمويون في أشعارهم مر الشكوى من سوء معاملة قبائلهم لهم وقسوتها عليهم، حتى ليصمها بعضهم بالجور والتقصير، وحتى ليهددها بالخروج عنها والعيش في الصحراء، حيث أرض الله الواسعة، وحيث المكان الذي لا يذل فيه الإنسان. وصور ذلك الخطيم العكلي قبل أن يتصعلك بقوله:

بني ظالمٍ لا تظلموني فإنّني
إلى صالحِ الأقوامِ غَيْرُ بَغيض

بني ظالمٍ إنْ تمنعوا فَضْلَ ما بكُمْ
فإنَّ بِسَاطي في البلادِ عَريض

فإنّ المعالم يُسْلَب الدَّهْرُ عِزَّهُ
به العَلَجان المرّ غَيْرُ أرِيض

وقد وصف القتال الكلابي حياته بعد خلعه، إذ ينكر حياة الخمول ويندد بقبيلته التي خلعته واتهمته بالجبن والخمول:

يا لَيْتَني والمُنَى لَيْسَتْ بنافِعَةٍ
لمالكٍ أو لِحِصْنٍ أو لِسَيَّار[1]

---

(١) بنو مالك وحصن وسيار من فزارة، مشهورون بمنعتهم وتمردهم.

طِـوَالِ أَنْـضِـيَـةِ الأعـنـاقِ لـم يَـجِـدُوا
ريـحَ الإمـاءِ إذا راحـتْ بـأَزْفَـار[1]
لا يـتـركـونَ أخَـاهُـمْ فـي مُـوَدَّأَةٍ
يُـسْـفَـى عـلـيـه دَلِـيْـكُ الـذُّلِّ والـعـار[2]
ولا يَـفِـرُّونَ والـمـخـزاةُ تـقـرعُـهُـمْ
حـتـى يُـصـيـبـوا بـأيْـدٍ ذاتِ أظْـفَـار

عاش الخلفاء في ظروف اجتماعية قاسية، وفي حالة فيها البؤس والذل. ممّا دفعهم إلى التصعلك والإغارة لاكتساب لقمة العيش. وكما قلنا إن سبب الخلع هو جنايات المخلوع نفسه أو سوء أخلاقه. ومن هؤلاء الخلعاء مسعود بن خرشة الشاعر البدري التميمي، وأحد اللصوص الذين كان خلعهم سبب تصعلكهم وتلصصهم إذ الراجح «أن قومه خلعوه لفساد أخلاقه». وعبيد بن أيوب العنبري الذي كان لصاً فأهدر السلطان دمه وخلعه قومه. «فاستصحب الوحوش وأنس بها وأنست به» والأحيمر السعدي الذي كان أيضاً لصاً كثير الجنايات، فخلعه قومه وخاف السلطان «فخرج إلى الفلوات وقفار الأرض». ويَعْلَى الأحول اليشكري الأزدي إذ

---

(١) أنضية الأعناق: عظامها. الأزمار: الأحمال.

(٢) المؤدأة: الشدّة والمهلكة. الدليك: التراب الناعم.

كان «لصاً فاتكاً خارباً يجمع صعاليك الأزد وخلعاءها، ويغير بهم على أحياء العرب ويقطع الطريق على السابلة، فشُكي إلى نافع بن علقمة الكناني والي مكة، فأخذ به عشيرته الأدنين فلم ينفعه ذلك، واجتمع إليه شيوخ الحي وعرفوه أنه خليع قد تبرأوا من جرائره إلى العرب، فلم يقبل ذلك منهم وألزمهم إحضاره، وضم إليهم شرطاً يطلبونه إذا طرق الحي حتى يجيئوا به. فلما اشتد عليهم في أمره، طلبوه حتى وجدوه فأتوا به فقيده وأودعه السجن».

وكلما استعرضنا حياة هؤلاء الخلعاء نجد أن قبائلهم إنما كانت تخلعهم لفساد سلوكهم الأخلاقي أو الاجتماعي. وانها كانت تتبرأ منهم بعد خلعها لهم. حتى أصبحت حياتهم بعد ذاك ذليلة مهينة. ولم يعد أمامهم إلاّ التصعلك والتلصص والإغارة.

وإلى جانب هذه الفئة من الخلعاء، نشأت فئة الفارين من وجه العدالة. الذين عاثوا في الأرض فساداً. ومن هؤلاء الصعاليك الفارين من وجه العدالة الهيزدان بن خطّار «كان لصاً فطلبه السلطان ففر إلى خراسان» والقتّال الباهلي «كان شاعراً فارساً، فأحدث حدثاً فهرب إلى جبل يذبل وأقام به». وعبد الله بن الأحدب السعدي اللص الفاتك «جنى جناية فترك بلاد تميم ولحق ببلاد قضاعة» وبَهْدَلُ الطائي وأخوه

مروان، .ورفيقهما السمهري بن بشر العكلي اللص، «أغاروا جميعاً على عون بن جعدة وهو في طريقه إلى الحج، وقتلوه فطلبهم عبد الملك بن مروان أشد طلب حتى قبض عليهم ونكل بهم». ويلتقي بعض الصعاليك الفقراء مع الصعاليك الخلعاء الفارين من وجه العدالة مثل مالك بن الريب وجحدر بن مالك الحنفي، والأحيمر السعدي.

وقد وردت في كتب التاريخ أخبار تلك الفئة الفارة من وجه العدالة. وهذا القتال الباهلي، يصف حياة التشرد وما فيها من بؤس وعذاب، وخوف وألم:

تقولُ ابنةُ البكريِّ لمّا بدا لنا
لدى السِّتْرِ منها لِمَّةٌ وبَنانُ
أراكَ ظَلِلْتَ اليومَ أسوَد شاحباً
طريدَ دَمٍ يُرمى بكَ الرَّجَوانُ[1]
أخا سَفَرٍ يشكو الكلالَ ركابُهُ
تَبَدَّل مُرّ العَيْشِ بَعْدَ لِيانِ

ويصف السمهري بن بشر العكلي الحبس، وما يتلقاه من أذى نفسي وجسدي بقوله:

(١) رمى به الرجوان: استهين به.

لقد جَمَعَ الحَدَّادُ بَيْنَ عِصَابَةٍ
تَسائِلُ في الأَقْيَادِ ماذا ذُنُوبُها[1]
بِمَنْزِلَةٍ أمَّا اللئيمُ فَشَامِتٌ
بها وكِرَامُ القَوْمِ بادٍ شُحُوبُها
إذا حَرسِيٌّ قَعْقَعَ البابَ أُرْعِدَتْ
فَرَائِصُ أَقْوَامٍ وطارتْ قُلُوبُها[2]
ألا ليتني مِنْ غَيْرِ عُكْلٍ قبيلتي
وَلَمْ أَدْرِ ما شُبَّانُ عُكْلٍ وَشَيْبُها
قَبِيِّلَةٌ لا يَقْرَعُ البابَ وَفْدُها
لِخَيْرٍ ولا يُهْدَى الصَّوابَ خَطِيْبُها

من هذه القسوة المتلاحقة من السلطة حيناً ومن القبيلة حيناً آخر خرجت طائفة الصعاليك في العصر الأموي. شاهرة سلاح الغزو والتلصص سبيلاً وهدفاً، من أجل حياة أفضل، أو على الأقل من أجل البقاء في الحياة بعدما سدت منافذ العيش الشريف أمامهم.

---

(١) الحداد: السجان.

(٢) أرعدت: ارتجفت واضطربت. الفرائص: جمع فريصة، وهي اللحمة التي بين الجنب والكتف.

٢ ـ الحياة السياسية:

اضطربت الحياة السياسية في الأمصار الإسلامية بعد مقتل عثمان بن عفان. وانقسم المسلمون بين مؤيد للإمام علي، ومعارض له. وقاد المعارضة آنذاك السيدة عائشة، وطلحة والزبير «فإنهم رفضوا المبايعة له ـ لعلي ـ وانحدروا من مكة إلى البصرة حيث أنصارهم وأشياعهم للمطالبة بدم عثمان». وتبعهم الإمام علي، ونزل بالكوفة وأخذ يراسلهم مبتغياً حقن دماء المسلمين. غير أنه لم يكتب له النجاح، وكانت موقعة الجمل بينه وبينهم، وانتهت بانتصاره عليهم «ومقتل طلحة وجرح الزبير وعودة عائشة إلى مكة». وما كادت تخمد نيران هذه الحرب حتى تلتها معركة ـ صفين ـ بين الإمام علي ومعاوية. وكانت خديعة التحكيم التي أدت إلى خروج طائفة من أنصار الإمام علي عليه وطالبته برفض التحكيم «فلما لم يأخذ برأيهم انفضوا من حوله ودارت بينه وبينهم معركة النهروان، ففتك بهم فتكاً ذريعاً، ولكنهم لم يلبثوا أن اتفقوا على التخلص منه ومن خصمه، فغدروا به وقتلوه وسلم معاوية».

وبعد هذا بويع معاوية خليفة للمسلمين. وبرزت في عهده ثلاثة أحزاب بدأت تظهر على المسرح السياسي وهي:

١ - حزب الزبيريين:

وينسب إلى عبد الله بن الزبير، الذي التزم جانب السيدة عائشة وطلحة حين طالبا بدم عثمان، وشارك في موقعة الجمل وجرح فيها وأقام في مكة بعد مقتل الإمام عليّ. حيث استرضاه معاوية «وشغله عنه بإشراكه في غزو بلاد الروم مع يزيد». لكن هذا الود بين معاوية وعبد الله بن الزبير لم يدم طويلاً، خاصة عندما علم عبد الله أن معاوية يريد أخذ البيعة لابنه يزيد. «إذ رفض المبايعة له، وثبت على موقفه منه بعد وفاة أبيه، واعتصم بداره في المدينة». فكتب يزيد إلى عامله بالمدينة الوليد بن عتبة أن يأخذ «عبد الله بن الزبير والحسين بن علي، وعبد الله بن عمر أخذاً شديداً حتى يبايعوا». فبايع عبد الله بن عمر وامتنع الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير. وذهبا إلى مكة. ومنها انطلق الحسين إلى الكوفة. وبقي ابن الزبير في مكة وحده. وبدأ بالدعوة لنفسه، وتصادف «أن ثار أهل المدينة على يزيد متهمين له بالفجور والفسق، وطردوا عامله وسائر بني أميه». فسير لهم يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المري، فقضى على ثورتهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً في موقعة الحرة المشهورة. وتوجه إلى مكة

يريد القضاء على ابن الزبير ومن ناصره. فمات قبل أن يصل إليها. واستخلف على الجيش الحصين بن نمير فواصل السير نحو مكة «حتى بلغ إليها، وأحاط بها، وبدأ يرميها بالمجانيق، وقبل أن يدخلها أتاه نبأ موت يزيد ففك الحصار عنها ورجع إلى الشام».

وحاول معاوية بن يزيد أن يسوس الرعية بالرفق والعدل واستنكر «سياسة جده وأبيه، وما قامت عليه من العنف بالعلويين والزبيريين. ولكن خلافته لم تطل ومات بعد عدة أشهر من تسلمه مقاليد السلطة. ويبرز نجم مروان بن الحكم، ويقضي على معارضة القيسية له، ويقتل زعيمهم الضحاك بن قيس في موقعة مرج راهط.

وفي هذه الاثناء كان عبد الله بن الزبير قد تغلب على مكة وسمى نفسه أمير المؤمنين وبايعه في ذلك أهل مصر وفلسطين ودمشق وحمص وقنسرين والكوفة والبصرة وخراسان.

وبعد وفاة مروان، بايع أهل الشام لابنه عبد الملك الذي قضى على الخوارج، وحارب مصعب بن الزبير بالعراق وقتله. وأرسل الحجاج بن يوسف على رأس جيش ضخم إلى مكة لمحاربة عبد الله بن الزبير. فحاصرها «وما يزال بها حتى دخلها وقتل ابن الزبير» وبمقتل عبد الله بن الزبير بمكة انتهى حزب الزبيريين.

٢ ـ حزب الخوارج:

أما حزب الخوارج فهو أهم «حزب ناهض الأمويين وشهر السلاح ضدهم». وكان الإمام علي بن أبي طالب قد حاربهم وانتصر عليهم لكن بقاياهم مضت في ثورتها عليه، ومجاهدتها له. حتى غدرت به. إذ اغتاله ابن ملجم. ولم يرضوا عن معاوية الذي أصبح خليفة. وفي هذا الوقت بدأت نظريتهم السياسية تتضح «فقد كفرو علياً وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين ومن رضي بالتحكم». مؤمنين بأن الخلافة حق لكل مسلم توفرت فيه صفة العدل واجتناب الجور بصرف النظر عن «كونه عربياً أو اعجمياً أو حراً أو عبداً». وتوالت ثوراتهم على معاوية بالكوفة. وأول من ثار منهم بها هو ثرة الأسدي إذ نزل بالنخيلة، والتقى بجيش معاوية وقتل. وكان زياد بن أبيه والي البصرة منذ سنة خمس وأربعين. وقد «أخذ الناس بالشدة، وجرد السيف وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وكان يقتل المعلن من الخوارج ويستصلح المسر» وسار على خطاه ابنه عبد الله. فكان «لا يلبثُ الخوارج بل كان يحبسهم تارة، ويقتلهم تارة وأكثر ذلك يقتلهم ولا يتغافل عن أحد منهم»

وعندما ثار ابن الزبير بمكة ضد بني أمية، توجه إليه زعماء الخوارج وأتباعهم وسرعان ما انفضوا عنه، إذ وجدوه

على غير رأيهم. واختلف زعماؤهم. وظهرت فرقهم المعروفة وأشهرها الأزارقة والنجدات الصفرية والأباضية. مما سهل لبني أمية القضاء على الخوارج بعد فترة طويلة من الزمن، وبعد معارك كثيرة أنهكت الدولة.

٣ ـ الشيعة:

أما الشيعة فكانوا يختلفون عن الزبيريين والخوارج في أنهم رأوا أن تكون الخلافة لعلي وبنيه. وتكونت نواة هذا الحزب في حياة الإمام عليّ. وبعد مقتل عثمان بايع أكثر الناس بالمدينة لعلي. غير أنه لم يقم بها طويلاً، بل ذهب إلى الكوفة ومكث بها مدة يقاتل معاوية، والشيعة من حوله إلى أن قتل. فثار أنصاره في وجه الدولة الأموية، ومنهم حجر بن عدي أحد كبار الشيعة، على المغيرة بن شعبة الثقفي. ولم يجرؤ المغيرة على قتله. وحين تولى البصرة والكوفة زياد بن أبيه، ثار في وجهه حجر بن عدي مرة أخرى، وقاتل عمرو بن الحريث نائب زياد بالكوفة وقذفه الشيعة بالحجارة وهو على المنبر، فغضب زياد وأقبل من البصرة وقبض على زعمائهم وأرسلهم إلى معاوية فقتل حجراً وبعض أصحابه.

ويركن الشيعة إلى الهدوء فترة من الزمن، ثم يكاتبون

الحسين بن علي بعد وفاة معاوية في القدوم إليهم من مكة، فيحضر إلى الكوفة، لكن الناس تخذله وتبتعد عنه. ويقتله عبيد الله بن زياد في كربلاء. وتخرج حركة التوابين بقيادة سليمان بن صُرَد وتقاتل جيوش الأمويين وتنتصر «ثم لا يلبث هذا الجيش - الأموي - أن ينتصر عليهم ويقتل زعيمهم». ويخرج بعده المختار الثقفي ويأخذ الدعوة لابن الحنفية. ويستولي على الكوفة ويطرد منها عامل ابن الزبير وينازل جيشاً من أهل الشام ويقهره. ثم ينهض له مصعب بن الزبير مستعيناً بأهل البصرة، فيقضي عليه ويقتله.

وقامت ثورات ضد الأمويين، قام بها الموالي، وحروب قادها بعض الأشراف من العرب مثل عمرو بن سعيد بن العاص الذي ثار على عبد الملك بن مروان وامتنع عليه بدمشق فاحتال له عبد الملك وقتله. ومثل عبد الرحمن بن الأشعث الذي خرج على عبد الملك، وقاتل الحجاج وخلعه، وخلع عبد الملك نفسه. وانتصر عبد الرحمن في معارك كثيرة، لكن الحجاج انتصر عليه في النهاية، ففر عبد الرحمن إلى سجستان والتجأ إلى قائد الترك «فأسلمه إلى الحجاج وقطعت رأسه». كذلك ثار على الدولة يزيد بن المهلب بالبصرة الذي قتل سنة اثنتين ومائة.

في هذا الجو السياسي المضطرب، تكونت طائفة جديدة من الصعاليك هي طائفة الصعاليك السياسيين إذ

كانت حياتهم تشبه حياة إخوانهم الصعاليك حيث الفقر والبؤس. والضياع في حمى وطيس الحرب الدائرة بين السلطة والأحزاب المناهضة لها.

وإن الصعاليك السياسيين تمثلوا الحياة السياسية ومفاسدها تمثيلاً دقيقاً. وكانوا أشد حقداً، وعنفاً، وتمرداً، وخطراً على الدولة، التي أصبحت هدفهم المباشر إذ كان هدفهم الدولة ذاتها، بعمالها وولاتها وخلفائها. لذلك نراهم قد شاركوا وبشكل فعال في الثورة ضد الظلم القائم.

إن شعر الصعاليك الذي وصل إلينا من تلك الفترة ينطق بثورتهم وتمردهم كما أن أخبارهم التي نقلت إلينا تكشف عن سخطهم على الدولة ومهاجمتهم لها. ومشاركتهم في الثورات التي أسعرها غيرهم ضدها. وفي الغزوات التي شنوها هم أنفسهم عليها، وقاتلوا جيوشها، وهزموها، وطردوا عمالها، واستولوا على بعض ولاياتها واستخلصوا خراجها. ويلخص نظرية الفساد الاقتصادي مالك بن الريب، ذلك الفساد الذي جرّ عليه الفقر والبؤس. والذي كان سبباً من أسباب تصعلكه، ويبين كيف أن فساد السياسة الأموية مع القبائل، كان أيضاً من أسباب تلصصه. وفي هذا يقول:

لو كُنْتُمُ تُنْكِرُونَ الغَدْرَ قُلْتُ لَكُمْ
يا آل مروانَ جَارى مِنْكُمُ الحَكَمُ

وأتَّقِيكُمْ يَمِينَ الله ضَاحِيةً
عندَ الشُّهودِ وقد تُوفى به الذِّمَمُ
لا كُنْتُ أُحْدِثُ سوءاً في إمارتِكُمْ
ولا الذي فاتَ مِنّي قَبْلُ يُنْتَقَمُ
نَحْنُ الذينَ إذا خِفْتُمْ مُجَلَّلَةً
قُلْتُمْ لنا انَّنا مِنْكُمْ لِتَعْتَصِمُوا
حَتَّى إذا انفرجتْ عَنْكُمْ دُجُنَّتُها
صِرْتُمْ كَجَرْمٍ فلا آلٌ ولا رَحِمُ

إنه يصور ثورته على بني أمية، منكراً لحكمهم، لا يجد غير التلصص والإمعان في التصعلك طريقاً إلى العيش معهم. لأن الأمويين هم الذين يكيدون له ولقبيلته، ولا يهتمون له ولأمثاله من فتيان تميم. ولا يتذكرون روابط القربى والدم بينهم إلّا حين تشتد المحن فإذا ما تغلب الأمويون على أعدائهم تنكروا للتميميين الذين ساعدوهم.

ومالك بن الريب يلخص في شعره ما ثار في العصر الأموي من عصبيات بين القبائل، وكيف كان الأمويون يغذون هذه العصبيات، ويثيرون الخلافات بين قبائل تميم التي ناصرتهم، وقبائل مضر التي كادوا لها، ممّا سبب الحقد لدى مالك على سياسة بني أمية التي عملت تحت شعار

ـ فرق تسد ـ وهذا الحقد على السلطة دفعه إلى التصعلك والعمل على تقويض دولة بني أمية التي كفر بها، نتيجة لسياستها بين القبائل.

وهذا رفيقه ـ أبا حَرْدَبَة المازنيِّ التميمي ـ. لم يكتف بوصف بني أمية بالغدر وإنما ينذرهم ويتوعدهم بالغارات التي تسحقهم. متمنياً على الله أن يمده بالكماة الشجعان الذين يديل بهم من دولتهم، ونراه يقول:

فهل الإلهُ يُشيِعُني بِفوارِسٍ
لبني أُمَيَّةَ في سِرَارِ جَمِيرِ[1]

ولم يقف الصعاليك السياسيون موقف الناقد، والمهدد فقط، بل انضم بعضهم إلى الثائرين، وشهروا السلاح على بني أمية. ومن أشهرهم عبد الله بن الحجاج الثعلبي الذي «كان فاتكاً شجاعاً صعلوكاً من صعاليك العرب متسرعاً إلى الفتن».

إذ خرج مع عمرو بن سعيد بن العاص على عبد الملك بن مروان بدمشق. فلما قضى عبد الملك على عمرو لم يستسلم عبد الله ولا استكان، ولا فقد الأمل في الإطاحة

---

(١) السرار: آخر ليلة من الشهر، ويسمى الهلال قبل ليلة السرار بليلة ابن جمير.

بعبد الملك بل ظل يتلمس السبيل إلى الخلاص منه، وإذا هو ينضم إلى نجدة بن عامر الخارجي، ويساهم معه في مقاتلة جيوش عبد الملك، ولا ينتصر عليها، بل يتقهقر أمامها.

وحينئذٍ يهرب عبد الله، وتضيق الأرض عليه من شدة طلب عبد الملك له وهو يقول مصوراً خوفه وفزعه:

رَأَيْتُ بِلادَ اللهِ وَهْيَ عَرِيضَةٌ عَلى الخائِفِ المَطْرُودِ كِفَّةَ حابِلِ[1]

تُؤَدِّي إلَيْهِ أنَّ كُلَّ ثَنِيَّةٍ تَيَمَّمَها تَرْمِي إلَيْهِ بِقاتِلِ[2]

ومن الصعاليك السياسيين الذين انشأتهم الظروف، وسيرتهم في طريق مخالف لما هم فيه عبد الله بن الحر الجعفي. الذي كان في أول عهده رجلاً من خيار قومه صلاحاً وفضلاً وصلاة واجتهاداً. والذي شارك في الفتوح الإسلامية. فلما قتل عثمان وهاج الهيج بين علي ومعاوية انحاز إلى المطالبين بدم عثمان، ووالى معاوية، وقاتل معه ضد علي في صفين. وظل يقيم بالشام إلى أن قتل علي

(١) كفة الحابل: مصيدة الصائد.

(٢) تؤدي: تخيل. الثنية: الطريق في الجبل.

وبويع معاوية خليفة للمسلمين، فتركها وهاجر إلى الكوفة، وعندما ثار ابن الزبير على يزيد، رأى عبد الله التطاحن والتنازع وقنط من اجتماع آراء الناس على الحق والعدل والخير، وزاد من يأسه وقنوطه اضطراب حال البصرة وثورتها على عبيد الله بن زياد. وحينئذٍ خلع وقاره وتصعلك وخرج من الكوفة بمن انضم إليه من خلعاء القبائل، «ويمَّموا وجوههم نحو المدائن فكان يأخذ أموال السلطان ويفرقها بين أصحابه ويرسل إلى رفاقه الآخرين بالكوفة».

إن حركة الصعاليك السياسيين تمثلت في العصر الأموي بشعراء أمثال أبي حردبة المازني، وعبد الله بن الحجاج الثعلبي، وعبيد الله بن الحر الجعفي، وهؤلاء لم يكن هدفهم الإغارة والسلب فقط على ما كان لدى طائفة الصعاليك الفقراء، بل كان همهم القضاء على نظام الحكم الأموي، ولذلك نراهم قد هددوا عمال وخلفاء بني أمية، وسلبوا مال الدولة، ومنعوا خراج بعض المناطق، رسيطروا عليه، إذ حرموه لبيت المال.

إن هؤلاء كفروا بالجماعة الحاكمة، وبالأحزاب الثائرة، وانطلقوا ليقيموا ومن معهم دولة الصعاليك التي ينشدونها. مع العلم أن هؤلاء لم يتخلوا عن عقيدتهم الإسلامية. وعن دينهم الحنيف.

الصعاليك في العصر الأموي

طوائفهم وحياتهم

يقسم الصعاليك في العصر الأموي إلى ثلاث فئات وهي:

١ ـ فئة الصعاليك الفقراء:

ونشأت هذه الفئة بسبب السياسة الاقتصادية التي اتبعتها الدولة الأموية مع القبائل، إذ كانت تمدُّ يد المساعدة والعون للقبائل التي تقف معها وتساعدها. وتقلل من تلك المساعدة للقبائل التي كانت تناهضها، أو أنها كانت تقطعها في كثير من الأحيان وتسوم تلك القبائل المناهضة ألوان العذاب والشدة. إذ كانت تجور في فرض الصدقات عليها، وتتجبر في استخلاصها منها. ونستطيع القول إن هذه الفئة من الصعاليك نشأت في ظل سياسة ظالمة، وإنها كانت متصلة بالأيام التي عم فيها العسف والجور. وخير من يمثل هذه الفئة من الصعاليك الفقراء هم: مالك بن الريب التميمي وأبو النشناش التميمي، وطهمان بن عمر وجحدر بن مالك الحنفي، والسَّمْهَرِيُّ بن بشر العكلي.

٢ ـ فئة الخلعاء والشذاذ:

والتي تكونت من خلعاء القبائل وشذاذها الذين انحرف سلوكهم في قبائلهم أو في غيرها فخلعتهم وتنصلت منهم، وتوقفت عن المطالبة بحقوقهم والنهوض بجرائرهم. وكان الظن أن تختفي هذه الفئة في عصر الدولة المركزية. إلاّ أن تمسك القبائل بتقاليدها وعاداتها وسلطة شيخ القبيلة وفرض سلطانه على أبنائها ابتغاء المحافظة على مركزها ووحدتها أمام القبائل الأخرى أدى إلى ظهور هذه الفئة من الصعاليك من أمثال:

الخَطِيم العُكْليّ، ومسعود بن خرشة التميميّ، وعبيد بن أيوب العنبري، ويعلى الأحول اليشكري.

٣ ـ فئة الفارين من العدالة:

وهؤلاء الذين ارتكبوا جناية واعتدوا على غيرهم، إما بالقتل وإما بالسرقة. وكانت أعمالهم الشاذة قد وصلت إلى العمال والخليفة. فطولبت قبائلهم بهم، ففروا من الطلب والعقاب. ومنهم: القتّال الكلابي، والقتّال الباهلي، والهيزدان بن خطار وعبد الله بن الأحدب السّعدي التميمي، والأحيمر السعدي التميمي، ومسعود بن خرشة التميمي.

٤ ـ فئة الصعاليك السياسيين:

وهم الذين يئسوا من تصارع الأحزاب وتطاحنها على الخلافة، ويئسوا كذلك من عدل الدولة الأموية. فناصبوها العداء، وخرجوا عليها منذرين متوعدين وثائرين ومنهم: أبو حَرْدبة المازني التميميّ، وعبد الله بن الحجاج الثعلبي، وعبد الله بن الحر الجعفي.

والملاحظ أنه ظهر نوعان من الصعاليك الذين ظهروا في المجتمع الجاهلي:

١ ـ الصعاليك الفقراء.

٢ ـ الصعاليك الخلعاء.

ونشأ صنفان جديدان من الصعاليك لم نجدهما في العصر الجاهلي وهما.

١ ـ الصعاليك الجناة الفارون من العدالة.

٢ ـ الصعاليك السياسيون.

والظاهر أنّ طائفة الصعاليك الغرباء ـ الملونين ـ كادت أن تختفي في العصر الأموي، ولم تبرز كظاهرة بل كانت بأفرادِ منهم ـ الغُدافِ الحبشيّ ـ «والذي لم يكن في الأرض أشد منه وكان يقطع الطريق على القافلة وحده بما فيها من الحماة والخضراء». وأَفْلَحَ «الذي قطع الطريق على

القوافل بخراسان بمفرده عشرين سنة». والواضح من تصعلك الغداف وأفلح أن الظروف الاجتماعية والتفرقة العنصرية كانت السبب في تصعلكهما.

إن الفقر والامتناع عن الظلم سببا نشوء طوائف الصعاليك في العصر الأموي ونراها لا تختلف في تكوينها ومبادئها عن صعاليك العصر الجاهلي. كما أنها كانت تتصف بالقوة والصلابة والأنفة. ومن الطريف حقاً أن نرى الصعاليك الأمويين ينفرون من القيام بالأعمال الفرعية، ويأبون إسناد الأمور الحقيرة إليهم، كأنما كانوا يرون في قيامهم بها احتقاراً لهم، وحطاً عن أقدارهم. لأنهم أقوياء، وكأنما خلقوا لجليل الأعمال وخطير الأمور. تماماً مثلما كان الصعاليك الجاهليون يستشعرون ويقدِّرون. ومما يدل على ذلك أوضح الدلالة ما يُروى من أن سعيد بن عثمان بن عفان حين استتاب مالك بن الريب وألحقه بجيشه احتاج وهو بطريقه إلى خراسان إلى بعض اللبن فطلب صاحب إبله فلم يجده، فقام مالك عليها وحلبها، فأحسن حلبها.

فقال له سعيد: هل لك أن تقوم بأمرها وأجزِلَ لك الرزق إلى ما أرزقُك من العطاء وأضع عنك الغزو؟ فرفض وأنشأ يقول(*):

(*) الأغاني ـ طبعة ساسي ـ ١٩ ـ ١٦٦.

إنّـي لأَسْـتَحْـي الـفـوارس أنْ أُرَى

بـأرضِ العِدَا بَـوَّ المخَاضِ الـرَّوائمِ[1]

وإنّـي لأسـتـحـي إذا الـحـربُ شـمَّـرت

أنَ أرْخي وَقْتَ الحـربِ ثـوبَ المسـالَمِ

ومـا أنـا بـالثّـاني الحفيـظة في الـوغَى

ولا المتّقِي فـي السِّلْمِ جَـرَّ الجـرائِـمِ[2]

ولا الـمتـأنّـي فـي الـعـواقِـب لـلذي

أهُـمُّ بِـهِ مـن فـاتِـكَـاتِ الـعـزائـمِ

ولـكنّـني مُسْتَـوْجِـدُ الـعَـزْمِ مُقْـدِمٌ

عـلى غـمـراتِ الـحـادث الـمُـتَـفَـاقِـمِ

قليـلُ اختـلافِ الـرأيِ في الحـرب بـاسِـلٌ

جـمـيـعُ الـفـؤادِ عـنـدَ حَـلِّ الـعـظائـمَ

في هذه الأبيات يرفض مالك أن يكون خادماً للنوق في أرض الأعداء. ورفاقه يستعدون للقتال. لأنه يرى في ذلك عاراً وخزياً له. وهو لم يخلق لمثل تلك الأعمال ولكنه خلق للمعارك وللنزال، وهو صاحب قلب قـوي، شديد، بعيد

---

(١) البو: ابن الناقة. الروائم: العاطفة المخاض: النوق الحوامل، أو النوق التي امتلأت سمناً ونتاجاً.

(٢) الثاني: الاوي. الحفيظة: الغضب والحمية.

الهمة، ثابت الرأي، يقذف بنفسه في المهالك والردى دون أن يفكر بالنتيجة وبالمصير.

وكان العذاب النفسي لدى الصعاليك في العصر الأموي، من حالة الانفصال عن الجماعة.. القبيلة.. التي رفضت مناصرتهم، لكثرة الجرائر والآثام التي ارتكبوها وهذا القتال الكلابي الذي كان من الجناة فطردته قبيلته نتيجة أفعاله ولم تقف بجانبه، ولم تناصره لكثرة ما أجرم، وفتك بالناس. وفي هذا يقول:

هَلْ مِنْ مَعاشِرَ غيرِكُمْ أَدْعُوهُمُ
فَلَقَدْ سَئِمتُ دُعاءَ يا لِكِلابِ
ولقَدْ لحنتُ لَكُمْ لِكَيْمَا تَفْهَمُوا
وَوَحَيْتُ وَحْياً ليسَ بالمرتابِ[1]

إنه ملّ الاستغاثة بقبيلته لطول ما استنجد بها ولا من مجيب، ولكثرة ما استصرخها ولا من سامع. ويبقى إحساسه مرتبطاً بها، إذ أنه يحس أن لا نصير له غيرها، ومن حقّه أن تنصره وقت الشدة، وتؤازره وقت الكارثة لتخلصه من مشاكل وقع فيها.

والذي زاد الأمور سوءاً لدى الصعاليك في هذا

(١) لحن: عرض وكنى. وحي: أشار إشارة خفية.

العصر، مطاردة العمال لهم إذ كانوا يجتهدون في طلبهم، آخذين قبائلهم بجرائرهم، ومشددين عليها لكي تساعد في البحث عنهم. ومخصصين الجوائز الكبيرة لمن يرشد إليهم أو يقبض عليهم. فحين قتل السمهري بن بشر العكلي هو وبهدل ومروان الطائيان، عون بن جعدة. وبلغ الخبر عبد الملك بن مروان. كتب إلى الحجاج بن يوسف وهو عامله على العراق، وإلى هشام بن إسماعيل عامله إلى المدينة وإلى والي اليمامة أن يطلبوا قَتَلة عون ويبالغوا في طلبهم «وأن يأخذوا السعاة به أشد أخذ، ويجعلوا لمن دَلَّ عليهم جُعلاً». وبالفعل قبض على السمهري «ودفع إلى عامل المدينة فقتله». وعندما اغتال القتال الكلابي اسماعيل بن هَبَّار، ونقل الأمر إلى مروان بن الحكم قال: «ومن يدلني على القتال من مملوك فهو حر، ومن كان حراً فله مكافأة ضخمة». ولما أخذ جحدر بن مالك الحنفي يغير على أهل هجر ونواحيها، ورفع خبره إلى الحجاج، كتب إلى عامله باليمامة يوبخه ويأمره بالاجتهاد في تعقبه. فأرسل إلى فتية من بني يربوع «وجعل لهم جُعلاً عظيماً إن هم قتلوه أو أتوا به أسيراً» «فلم يزالوا يترصدون له حتى قبضوا عليه، وجاءوا به إليه. فبعث به إلى الحجاج فعاقبه أشد عقاب، إذ خيره بين أمرين: فإما أن يقطع رأسه، وإما أن يصارع أسداً ضارياً وهو

مكبل، فإن صرعه عفا عنه، وإلاّ فقد لقي جزاءه. فارتضى الأمر الثاني ونازل الأسد وقتله، فصفح عنه». وعندما وقع شِظَاظُ رفيق مالك بن الريب في قبضة الحجاج «لم يجلده حدّ السرقة، بل صلبه بالبصرة صلباً» وبسبب هذه السياسة المتشددة من قبل الولاة والعمال. عاش الصعاليك بحالة من الخوف الدائم، والفزع المستمر. وسيطر عليهم الذعر حتى خُيِّلَ إليهم أن العيون والجواسيس تطاردهم وتتربص بهم في كل مكان. وهذا الخطيم العكلي يلخص خوفه من السلطان، وحنينه إلى حياة الاستقرار بين أهله وقبيلته(*).

ألَا لَـيْـتَ شِـعْـري هَـلْ أبيـتَـنَّ لـيـلةً
بـأعـلى بَليٍّ ذي الـسَّـلَامِ وذي الـسِّـدْرِ

وَهَـلْ أهْبِطَنْ روضَ القَـطَا غيـرَ خـائِفٍ
وَهَـلْ أُصْبِحَنَّ الـدَّهـرَ وَسْطَ بني صَخْـرِ

وَهَـلْ أرَيَـنْ بَـيْـنَ الـخَـفِـيْـرةِ والـحِـمَـى
حِمَى الـنِّيْـرِ يَـوْمـاً أو بـأكْـثِبَـةِ الشَّعـرِ

جميـعَ بـنـي عَـمـرو الـكِـرامَ وإخْـوَتـي
وذلـكَ عَصْـرٌ قَـدْ مَضَى قَبْـلَ ذا العَصْـرِ

لقد اشتد به الوجد والحنين، حينما شعر أنه سيقضي

(*) معجم البلدان ـ ج ٢ ـ ص ٢٨٤ ـ ج ٣ ـ ٣٤٧.

حياته مطروداً هائماً على وجهه بلا أمان ولا اطمئنان، وقد ملأت الرهبة أرجاء نفسه لبعده عن أهله ووطنه.

وهذا السمهري بن بشر العكلي اللص يصور ألمه وخوفه، وهو شارد في الصحراء مع رفيق له، بعد أن طلبه عبد الملك بن مروان، إذ يقول:

ألــم تَــرَ أنّي وابْــنِ أبـيضَ قَــدْ جَـفَــتْ
بــنــا الأرضُ إلاّ أن نَــؤُمَّ الــفَــيَــافِــيــا
طــريــديْنِ مــن حَــيَّيْــن شَــتَّــى أشــدَّنــا
مــخــافَــتُــنــا حــتــى عَــلَلْــنَــا الــتَّــصَــافِــيَــا

لقد تشرد وصديقه اللص في القفار فتآلفا وتآخيا، لأن مصيرهما واحد. وبلغ إحساسهما بالخوف حتى ظنا أن الأرض لفظتهما. ولم يبق أمامهما سوى الإمعان في الابتعاد علّهما يلقيا الأمان.

وهذا القتال الكلابي يصف خوفه ووجله من مروان بن الحكم، بعد أن تعقبه وشدد في طلبه، لأنه قتل إسماعيل بن هبار وفرّ من سجنه. وفي هذا يقول:

أيــرســلُ مــروانُ الأمــيــرُ رســالــةً
لآتــيــه إنِّــي إذَنْ لــمــضَــلَّلُ

(*) الأغاني ـ طبعة ساسي ٢١ ـ ص ٥٥.

وما بيَ عِصْيَانٌ ولا بُعْدُ مَنْزِلٍ
ولكنني مِنْ خَوْفِ مَرْوانَ أَوْجَلُ
سأُعْتِبُ أَهْلَ الدِّينِ مِمَّا يَرِيبُهم
وأَتْبَعُ عقلي ما هَدَى لي أَوَّلُ
أَوَ الحقُّ بالعنقاءِ في أرضٍ صَاحَةٍ
أو الباسقاتِ بين غَوْلٍ وغُلْغُلِ[1]
وفي باحَةِ العَنْقَاءِ أو في عَمَايَةٍ .
أو الأُدَمَى مِنْ رَهْبَةِ الموتِ موئلُ[2]

إنه حريص على حياته، ولا يستطيع أن يسلم نفسه إلى مروان لأن مصيره في ذاك الهلاك والموت. وهو خائف منه كاره له. ولهذا يحاول أن يهرب بعيداً في الآفاق ليتخلص من شبح مروان. ولا مجال أمامه إلّا الاختفاء بعيداً في المجاهل.

ويصور الأحيمر السعدي رهبته وخوفه من الموت الذي كان ينتظره اثر جناية كان قد اقترفها، فطلبه السلطان وأباح دمه. إذ أصبح لا يطمئن للناس وأستأنس بالحيوانات في

---

(١) العنقاء: أكمة بجبل في البحرين. غلغل: جبل بالبحرين. غول: جبل أو واد.

(٢) الباحة: الساحة. الأدمى: أرض ذات حجارة في بلاد تشير. موئل: منجى.

القفار البعيدة. وبالرغم من البعاد عن الناس ظل شبح الرعب والخوف يلاحقانه ويفزعانه. وكل ما يتمناه أن تغيب الشمس ويأتي الظلام لأنه أنجى له، لأنه يواريه عن أعين البشر، ويخفيه عن أنظارهم(*).

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئب إذ عوى
وصوَّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

رأى الله أنِّي للأنيسِ لَشَانِيءٌ
وتُبْغِضُهُمْ لي مُقْلَةٌ وضَميرُ

فَلِلَّيْلِ إذْ واراني الليلُ حُكْمُهُ
وللشَّمْسِ إنْ غابتْ عليَّ نُذُورُ

ويطغى تصوير الخوف الذي كان يعيشه الصعاليك على شعر عبيد بن أيوب العنبري حتى يطغى هذا على مجمل شعره، ويميزه عن غيره من الصعاليك الأمويين. وها هو يخاطب الحجاج وقد طلبه إثر سيئة ارتكبها[1]:

أذقني طَعْمَ النَّومْ أوسَلْ حَقِيْقَةً
عَليَّ فإنْ قامَتْ فَفَصِّلْ بَنَانِيا

خَلَعْتُ فؤادي فاستطارَ فَأَصْبَحَتْ
تَرَامَى بيَ البِيْدُ القِفَارُ تَرَامِيا

(*) الشعر والشعراء ص ٧٨٧.

(١) العقد الفريد ـ ج ٢ ـ ص ١٦٢.

وله أيضاً هذه الأبيات التي تصور رعبه وخوفه من كل شيء، حتى ليظن أن كل ما في الوجود يتربص به ليقضي عليه. وهو يشك بأصدق أصدقائه، لذلك لم يجد الأمان إلاّ في البراري والقفار[1].

لَقَدْ خِفْتُ حَتَّى لو تَمُرُّ حَمَامَةٌ
لَقُلْتُ عَدوٌ أو طَلِيْعَةُ مَعْشَرِ

فإنْ قيلَ أَمْنٌ قُلْتُ هذي خَديْعَةٌ
وإنْ قِيْلَ خَوْفٌ قُلْتُ حَقاً فَشَمِّرِ

وَخِفْتُ خَلِيلي ذا الصَّفَاءِ وَرَابَني
وَقِيْلَ فُلانٌ أو فلانَة فَاحْذَرِ

لقد عاش الصعاليك الأمويون حالة من الرعب والخوف، نتيجة المطاردة لهم، ولم يبق أمامهم سوى التشرد في المجاهل البعيدة عن أنس البشر. وبالرغم من هذا بقي إحساسهم بالخوف من السلطان وعذابه. وهذا ما جاء في شعرهم. فهذا عبيد بن أيوب العنبري، يشبه نفسه بالحيوان الوحشي لما بينهما من الابتعاد عن حواضر البشر، وعن الأمكنة المأهولة.

---

(١) حماسة البحتري ـ ص ٤١١.

وأَصْبَحْتُ كَالوَحْشِيِّ يَتْبَعُ ما خَلا
وَيَتْرُكُ مأنُوسَ البِلادِ المدعثَرِ[1]

وبسبب تشردهم في المجاهل والقفار، نراهم قد استأنسوا الحيوانات البرية المتوحشة. حتى الفوا الحياة بينها، واعتبروها أأمن من البشر. فوصفوها بأجمل الأوصاف، وبأدق التعابير، وفي هذا يقول الأحيمر السعدي[2].

أراني وذِئْبَ القَفْرِ الفَيْن بَعدما
بَدأنا كِلانا يَشْمَئِزُّ ويُذْعَرُ
تَألَّفَني لمَّا دَنا وأَلِفْتُهُ
وأَمْكَنَني للرّمْي لو كُنْتُ أغْدرُ
وَلكِنَّني لمْ يأتَمِنِّي صَاحِبٌ
فَيَرْتَابَ بي ما دَامَ لا يَتَغَيَّرُ

وأفضل من وصف هذا الجانب من الشعراء الصعاليك الأمويين، جانب الاستئناس بالحيوانات البرية، وألفتها أكثر من الناس. هو عبيد بن أيوب. وهذا اللون من مرافقة

(١) الحيوان ـ ٦ ـ ١٦٥. المدعثر: الموطوء.
(٢) الحيوان ـ ج ٦ ـ ص ١٦٨ ـ ٢٣٦.

الحيوانات والاستئناس بها يطغى على مجمل شعره. ويزعم أنه صاحب الذئب ومرافق الغول[1].

عَلامَ تُرَى لَيلي تُعذِّب بالمُنَى
أخا قَفَراتٍ كانَ بالذِّئْبِ يَأْنَسُ
وصَارَ خَليلَ الغُولِ بَعْدَ عَدَاوَةٍ
صَفِيًّا وَرَبَّتْهُ القِفَارُ البَسَابِسُ
فَلَيْسَ بِجِنِّيٍّ فَيُعْرَفُ نَجْلُهُ
ولا أَنِسِيٍّ تَحْتَوِيهِ المَجَالِسُ
يَظَلُّ ولا يَبْدُو لِشَيْءٍ نهارَه
ولكِنَّهُ يَنْبَاعُ واللَّيْلُ دَامِسٌ[2]

ويظهر في شعرهم جانب إنساني ناصع، هو حبهم للاستقرار وللحياة الهادئة المطمئنة. وما ألفتهم للحيوانات إلا تعويض نفسي عمّا ينتابهم من عدم استقرار في الحياة. إنهم في هذا الجانب يتشوقون إلى الأهل والأحبة والبلاد. وفي غيابهم القصري يتذكرون أيامهم الماضية حيث الهدوء والاطمئنان في أوطانهم، بين أهلهم وأصحابهم.

فهذا الخطيم العكلي اللص، يتذكر أثناء تشرده

---

(١) حماسة البحتري ص ٤١١.
(٢) إنباع الرجل: وثب بعد سكون.

محبوبته وبلادها، ويفضل طبيعتها الصحراوية على حواضر الشام وجبالها.

أَعُوذُ بِرَبِّي أنْ أَرَى الشَّامَ بَعْدَما
وعَمَّانَ ما غَنَّى الحَمَامُ وغَرَّدا

فَذَاكَ الذي أَنْكَرْتِ يا أُمَّ مالِكٍ
فأصبحتَ منه شاحبَ اللونِ أسودا

لها بينَ ذي قَارٍ فرَمْلِ مُخَفَّقٍ
مِنَ القُفِّ أو مِنْ رَمْلَةٍ بَيْنَ أَبْرَدا[1]

أواعِسُ في بَرْثٍ مِنَ الأرضِ طَيِّبٍ
وأَوْدِيَةٌ يُنْبِتْنَ سِدْراً وغَرْقَدَا[2]

أَحَبُّ إلينا مِنْ قُرَى الشَّام منزلاً
وأَجْبَالِها لو كانَ أَنْأى تَوَدَّدَا

ويدعو جحدر بن معاوية المحرزي اللص، لأطلال ومرابع صباه بالخير ويتذكر وهو بعيد عن ملاعب الصبا، الفتيات الجميلات اللواتي بادلهن المحبة. ويقول في ذلك:

يا دارُ بَيْنَ بُزَاخَةٍ فَكَثِيبِها
فَلِوَى غَبيرٍ سَهْلِها أو لُوبِها[3]

---

(١) مخفف: رمل بأسفل الدهناء.

(٢)وعساء وبرث: كل أرض سهلةلينة.

(٣) بزاخة: ماء بعنيه. اللوب الأرض السهلة. غبير: ماء.

سَقَتِ الصبا أطلالَ رَبْعَكِ مُغْدِقاً
يَنْهَلُّ عَارِضُها بِلُبْسِ جيوبها[2]
أيّام أرعى العيْنَ في زَهْرِ الصِّبا
وثِمَارَ جَنّاتِ النساء وطِيبِها

غير أن طهمان بن عمرو الكلابي الصعلوك البعيد عن دياره وديار أحبته. فإنه يحاول أن يمنع نفسه من التعلق بخليلته.

فيا لكِ مِنْ نَفْسٍ لجوج ألمْ أكُنْ
نَهَيْتُكِ عن هذا وأنت جَمِيعُ
وما زَالَ صَرْفُ الدَّهْرِ حَتَّى رأيتني
أُطلَّى على سهوانَ فهو مَرِيعُ[1]

ويبقى طيف الحبيبة يلاحقه ويؤرقه عند الفجر، وهو بعيد في أعماق الفيافي وفي جنبات الصحراء مع رفاقه النائمين بعد تعب المسير.

طَرَقَتْ أُمَيْمَةُ أَيْنُقاً ورحالا
ومُصَرَّعينَ من الكرى أَزْوَالا[3]

(١) الجيوب: الأرض ذات الحجارة والغلظ.
(٢) أطلى: أمرض. سهوان: جبل.
(٣) الأزوال: جمع زول وهو الخفيف الظريف.

وكأنما جَفَل القَطَا برحَالِنا
والليلُ قَدْ تَبِعَ النجومَ فمالا

ومن الصفات المهمة التي يتصف بها هؤلاء الصعاليك، القوة والشجاعة، والصبر واحتمال المكاره والمشقات، وصمودهم أمام المصاعب، واستهانتهم بالحياة، فمالك بن الريب مثلا يعلن أنه لا يخاف مروان بن الحكم. ولكنه يفر منه حرصاً على حياته ويتغنى بذلك الفرار، وبالأماكن البعيدة التي وصل إليها، وعاش فيها، بحيث أنه لا يستطيع أي إنسان أن يعيش فيها غيره.

ألا مَنْ مُبْلِغٍ مَرْوَانَ عَنِّي
بأنِّي لَيْسَ دَهْرِي بالفِرَار
ولا جزعاً من الحدثان دَهْري
ولكنِّي أَدُورُ لَكُمْ وَبَار

والسمهري بن بشر العكلي يتغنى بحزمه وعزمه، وقوته، وخبرته بالصحراء.

وما كُنتُ مِحياراً ولا فَزِعَ السُّرَى
ولكنْ حَذَا حُجْراً بغيرِ دليلِ

والملاحظ أن الصعاليك في العصر الأموي يلتقون مع إخوانهم في العصر الجاهلي بصفات ويختلفون عنهم

بأخرى. فمن أوجه اللقاء، الفقر الذي يجمع صعاليك العصرين وأنهم أقوياء لا يخافون الموت. والتشرد والهيام بالصحراء. وصفات الاختلاف أن بعض الصعاليك في العصر الأموي أخذه الرعب من قوة السلطان. كما أن بعضهم الآخر اشتد بهم الشوق إلى أهلهم وأوطانهم وحبيباتهم وملاعب صباهم.

عصاباتهم وأعمالهم

كانت حياة الصعاليك الأمويين صعبة للغاية، وكانوا على اختلاف طوائفهم يعيشون في القفار وفي مجاهل الأرض، إذ تعذرت لديهم أسباب الحياة. حتى لقد كان بعضهم يضطر «إلى إقامة أوده، وحفظ رمقه بعروق النبات، وأوراق الشجر، أو بما كان يصطاده من حيوان الصحراء».

ونتيجة لهذه الأحوال السيئة، آمن هؤلاء بشريعة أسلافهم من الصعاليك الجاهليين العاملين. ولم تحدثنا كتب التاريخ القديمة عن أي صعلوك أموي خامل ذليل ويبدو ذلك في أشعارهم، إذ أن أحداً منهم لم يعلن في أشعاره، ولم يُحمَل إلينا من أخباره ما ينبىء بأنه قَبِلَ الهوان والمذلة والحياة الخاملة لا من قبيلته ولا من الدولة وولاتها، وأفضل من عبر عن تلك الثورة لدى الصعاليك مالك بن الريب إذ يقول:

وما أنا كالعِيرِ المقيمِ لأهْلِهِ
على القَيْدِ في بَحْبُوحَةِ الضَّيْمِ يَرْتَعُ

وهو نفسه ينبئنا بأنه لا سبيل إلى الحياة الكريمة مع الظلم، ولا وسيلة إلى الغنى مع الفقر إلا استخدام القوة والاعتماد على السيف، وتعاطي الإغارة على التجار، وفي هذا يقول:

سَيُغْنِيْنِي المَلِيكُ ونَصْلُ سيفي
وكَرَّاتُ الكُمَيْتِ على التِّجار

وهذا عبيد الله بن الحر الجعفي، يعبر تعبيراً دقيقاً عن حياة الإغارة والقوة في الغرة، إذ يقول:

يُخَوِّفني بالقَتْل قومي وإنَّما
أموتُ إذا جاءَ الكتَابُ المؤَجَّلُ
إذا كُنْتَ ذا رمحٍ وسَيْفٍ مُصَمِّمٍ
على سابِحٍ أدْنَاكَ ممَّا تُؤمِّلُ[1]
وإنَّكَ إنْ لا تَرْكَبِ الهولَ لا تَنَلْ
من المال ما يكفي الصَّديقَ ويَفْضُلُ
إذا القِرْنُ لاقاني ومَلَّ حَيَاتَه
فلستُ أُبالي أيُّنَا ماتَ أوَّلُ

في هذه الأبيات صورة عن الشجاعة التي تبلغ حد الاستهانة بالحياة والاستخفاف بالموت في سبيل الغاية،

---

(١) السيف المصمم: الصارم الذي لا ينثني، بل يمضي في العظم ويقطعه.

وبلوغ المراد. وهو مؤمن بأن لكل إنسان أجل، وإنه لن يثرى وهو قاعد خامل. وآماله لن تتحقق إلاّ بسيفه ورمحه وجواده وركوبه للأخطار وتجشمه للأهوال، دون خوف أو مبالاة أو إحجام.

وكان الصعاليك الأمويون يمارسون أعمالهم من الإغارة والغزو بشكل منظم وجماعي. وبشكل عصابات تتألف من مجموعة من الصعاليك يغيرون وينهبون ويقتسمون ما غنموا من الأسلاب. فقد كان لمالك بن الريب التميمي عصابته التي كانت تتكون من أبي حردبة المازني وشِظَاظٍ الضبي، وغويث أحد بني كعب بن حنظلة. وكانت هذه العصابة من ألص العصابات وأشدها وأخطرها، حتى لقد روعت الناس، وأفزعت السابلة. وفيها يقول الراجز:

الله ما نَجَّاكَ من القصيم
وبَطْنِ فَلْجٍ وبني تميم
ومن أبي حردبةَ الأثيم
ومالك وسَيْفِهِ المَسْمُوم
ومن شِظاظِ الأحمر الزنيم
ومِنْ غُوَيْثٍ فاتح العُكوم[1]

---

(١) العكوم: جمع عكم وهو الحبل يشد به المتاع. الزنيم: الدعي الملحق بالقوم وليس منهم، المعروف بالشر واللؤم.

وأورد أبو الفرج أخباراً كثيرة عن تلك العصابات حيث كان لأبي النشناش التميمي عصابته الخاصة. وكذلك كان للسمهري بن بشر العكلي عصابته التي تكونت منه ومن بهدل ومروان الطائيين. وكانت لعبيد الله بن الحر الجعفي عصابته، بل جيشه من خلعاء القبائل الذين التفوا حوله «وانقادوا له، وآمنوا بزعامته».

وانفردت كل عصابة من هذه العصابات بمنطقة من المناطق استقرت بها. إذ كان مالك بن الريب وعصابته يقطعون الطريق على الحجيج ببطن فلج. وكان أبو النشناش التميمي ومن اجتمع إليه «يعترضون القوافل بين الحجاز والشام». وكان السمهري وعصابته «يغيرون على الناس بطريق الكوفة ومكة أو بطريق نخل والمدينة» أما عبيد الله بن الحر الجعفي فكان «يسيطر بجيشه من الخلعاء على بعض ولايات الدولة وأمصارها ويستخلص خراجها، وينهب ما ببيوت أموالها».

ولم يعتمد الصعاليك الأمويون في غاراتهم على السلاح وحده، فقد كانوا يستعينون به في المواقف التي تدعو إلى استخدامه. أما بعد ذلك فكانوا يستعينون بالحيل في سلبهم ونهبهم. ومن طريف ما رواه الجاحظ من حيل جحدر بن ضبيعة الثعلبي اللص أنه «كان إذا نزلت به رفقة

قريباً منه، أخذ قربة بالية فجعل فيها قرداناً ثم نثرها بقرب الإبل، فإذا وجدت الإبل مَسَّها نهضت، وشد القربة في ذنب بعض الإبل، فإذا سمعت صوتها وعملت فيها القردان نفرت. ثم كان يثب في ذروة ما ندَّ منها ويستولي عليها». وفي ترجمة مالك بن الريب بالأغاني أطراف من الحيل التي كان يلجأ إليها أبو حردبة المازني وشظاظ الضبي منها أن أبا حردبة كان إذا أعجبه بعير في قافلة «غافل رجالها حتى إذا أخذت عيونهم سنة من النوم سرق البعير وعليه صاحبه، وغيبه في مكان بعيد ثم عاد إلى القافلة، بعد أن يكون رجالها قد صحوا من غفلتهم، وسألوا عن صاحبهم. فإن جعلوا له جَعَالة زعم لهم أنه خبير بالأثر ودلهم على صاحبهم وأخذ ما فرضوه له ووعدوه به، وإلا فقد فاز بالبعير وما عليه». ومن أطرف ما يروى من حيل شظاظ الضبي في لصوصيته أنه «كان ذات يوم يمشي في الطريق يبتغي شيئاً يسرقه فلم يجد شيئاً. فاستظل بظل شجرة ينام تحت فيئها الركبان بمكان ليس فيه ظل غيرها، وإذا رجل يسير على حمار ومعه بعض المتاع يقصد تلك الشجرة يريد أن يستريح من مشقة السفر. فقال له شظاظ: إنّ المقيل الذي تريد أن تقيله يُخْسَف بالدواب فيه، فلم يلتفت الرجل إليه، وأناخ حماره واستراح فظل يراقبه حتى إذا نام أقبل على حماره فاستاقه، ولما نأى به

قطع طرف ذنبه وأذنيه وقاده إلى مكان بعيد وخبأه فيه. وحين استيقظ الرجل من نومه قام يطلب حماره ويقفو أثره، فبينما هو كذلك عثر على أطراف ذنبه وأذنيه فندم لأنه لم يستمع إلى نصيحته، وَوَلَّى هارباً خوف أن يُخسَفَ به. وأخذ شظاظ جميع ما بقي من رحله ومتاعه ولحق بأهله».

وعلى كل حال فإن هذه الحيل قليلة لدى الصعاليك الأمويين، ولم يعتمدوا عليها كل الاعتماد، وإنما هو الظرف الذي اضطرهم إليها، ويمكن أن تكون من آثار استقرار المجتمع بعض الاستقرار، وإن أعمالهم دارت على الإغارة على القبائل لسرقة إبلها، وإما على قطع السبل، وإما على الترصد للقوافل لانتهاب أحمالها وأموالها، وإما على التربص بالتجار في الأسواق لسرقة أنفس ما يعرضون من الثياب والبضائع. إلاّ ما كان من عبيد الله بن الحر الجعفي فإنه لم يصطنع شيئاً من ذلك، وإنما جعل همه انتهاب أموال الدولة.

أما الإغارة على القوافل واغتصاب إبلها فتخصص فيها غير واحد وغير عصابة فهذا القتال الكلابي يهدد بني حُصَين الذين كانوا ينزلون قرب ماء يسمى ـ الفياشل ـ بغزوهم قائلاً:

فَلا يَسْتَرِثْ أَهْلُ الفياشِلِ غَارَتِي
أَتَتْكُمْ عِتَاقُ الطَّيْرِ يَحْمِلْنَ أَنْسُرا

والعطاف العقيلي اللص يقول واصفاً سرقته للإبل هو وأفراد عصابته:

إذا كَلَّ حَادِيها من الأنْسِ أوْدَنَا
بَعَثْنَا لها من وُلْدِ إبليسَ حَادِيا
فلن تَرْتَعي جَنْبيْ ضِرافٍ ولن تَرَى
جُبُوبَ سَليل ما عَدَدْتُ اللياليا[1]

وهذا شظاظ الضبي يبين المكان الذي كان يسرق منه الإبل. وهو أرض للدولة كانت ترعى بها إبل من يريد الذهاب إلى الحج. وهو يبشر رفاقه بأنهم لن يموتوا جوعاً لأن أرض ـ عرق ناهق ـ قريب منهم، وما عليهم إلّا أن يتوجهوا إليه، فإن به إبلاً كثيرة راعية يمكن أن يغيروا عليها وينهبوها. وفي هذا يقول:

من مُبْلغٍ فِتْيَانَ قَومي رسالةً
فلا تَهْلكُوا فَقْراً على عِرْقِ نَاهِقِ
فإنَّ بِهِ صَيْداً عزيزاً وهَجْمَةً
طِوالَ الهَوَادِي بائِنَاتِ المَرَافِق[2]
نجائبَ عِيدِيٍّ يكونُ بغاؤه
دُعاءً وقَدْ جَاوَزْنَ عُرْضَ الشَّقائق

(١) ضراف: موضع بعينه. جبوب: أرض غليظة. السليل: واد.
(٢) الهجمة: المائة من الإبل.

أما مقاتل بن رباح فكان يشن الغارات على بني تغلب بأرض الجزيرة. ويبدو أن «اليمامة كانت بها أسواق الإبل، ومن أجل ذلك كان اللصوص ييممون وجوههم بما يسرقونه من الإبل إليها ليبيعوها بها». ومقاتل هذا ينصح أصحابه بأن يحذوا حذوه، ويسلكوا طريقه في السرقة وبيع الإبل، وينصحهم بأن يغيروا أسماءهم وأسماء قبائلهم. وفي هذا يقول:

إذا أَخَــذْتَ إبــلاً مــن تــغــلـبِ
فــلا تُــشَــرِّق بــي وَلــكِــنْ غَــرِّبِ
وبِــعْ بِــقَــرْحَــى أو بــحــوضِ الــثــعــلــبِ
وإنْ نُــسِــبْــتَ فــانــتــسِــبْ ثــم أكــذِبِ
ولا ألــومَــنَّــكَ فــي الــتَّــنَــقُّــبِ

وشملت إغارات هؤلاء الصعاليك اللصوص مصر. فقد ذهب عبيد بن عياش البكري اللص مع صاحب له في اللصوصية إلى مصر، وطردا إبلاً لرجل نصراني وما زالا بها حتى أورداها حَجْر اليمامة، ليبيعاها فيها. وفي ذلك يقول عياش:

سَرَتْ من قصور الحَوْفِ ليلاً فأصبحتْ
بِـــدِجْلَةَ مـــا يَـــرْجُـــو المقـــام حَسِيْـــرُهـــا(١)

(١) الحسير: الضعيف المهزول. الحوف: من قرى مصر.

نباطِيَّةٌ لم تَدْرِ ما الكُورُ قَبْلَها
ولا السَّيْرُ بالمَوْمَاةِ مُذْ دَقَّ نَوْرُها[1]

يدورُ عليها حَادِيَاها إذْ دَنَتْ
وأنت على كأسِ الصَّلِيب تُدِيرُها

سَلُوا أهلَ تيماءَ اليهودَ مَمَرُّها
صَبيحةَ خَمْسٍ وهي تَجْري صُفُورُها[2]

ألا لا يُبالي عَارِمٌ ما تَجَشَّمت
إذا واجَهَتْهُ سوقُ حَجْرٍ ودورُها

ومن الصعاليك الذين كانوا يقطعون الطرق، ويعترضون القوافل السمهري بن بشر العكلي، الذي كان يغير على الناس بطريق الكوفة ومكة، وأبو النشناش الذي كان يقطع الطريق ما بين الشام والحجاز. ومالك بن الريب الذي كان «ينقض مع عصابته على القوافل بطريق البصرة واليمامة».

وكان الأحيمر السعدي يستبشر الخير بنهيق الحمير، لأنه كان يؤذن بأن القوافل قد دنت منهم. ويقول في ذلك:

---

(١) الكور: الرحل. لم تدر ما الكور: يريد أنها لم ترحل ولا اعتادت على السفر. الموماة: الصحراء. دق نورها: ذهب وبرها الأول.

(٢) صفورها: ضوامرها.

نهقَ الحمارُ فقلتُ أيْمَنُ طائرٍ
إنَّ الحمارَ من التُّجارِ قريبُ

وهذا سليمان بن عياش اللص يصف طول انتظاره وتربصه بالقوافل، ويتمنى أن ينقض مع غيره من الصعاليك بل من ذئاب العرب من سليم وعامر وعبس على قافلة عراقية بين البصرة ومكة. وأن يكون أصحابها معسكرين وإبلهم شاردة. وهذا العمل محبب لديه لأن حقائب التجار العراقيين مغرية لما تحتوي من نفيس المتاع وعظيم الأموال. وفي هذا يقول:

يَقَرُّ لعيني أن تُرَى بينَ عصبةٍ
عِراقيةٍ قد جُزَّ عنها كتابها
وأن أسمع الطُّرَّاق يلقون رفقةً
مُخَيَّمة بالسبى ضاعتْ ركابها
أُتيحَ لها بالصَّحْن بين عُنَيْزَةٍ
وبيسان أطلاسٌ جَرودٌ ثيابها[1]
ذئابٌ تعاوتْ من سليم وعامرٍ
وعبسٍ وما يُلْقى هناكَ ذئابها

---

(١) الأطلاس هنا: الثياب البالية. عنيزة وبسيان: موضعان.

ألا بـأبـي أهـلِ الـعـراقِ وريـحـهـم
إذا نُشِّـرتْ بـعـدَ الـطِّرادِ عِـيـابـهـا[1]

أما محترفو الإغارة على الأسواق لنهب ما بها من الإبل وروائع التحف الجلدية وغيرها مما كان يحمل إليها ويعرض فيها. فكان يمثلهم جحدر بن مالك الحنفي. الذي يصف كيف كان يخطف الناقة من صاحبها، وكيف كان يفر بها. ويزعم أنه كان يسرق ليشتري لنفسه الثياب، بعد أن تكون ثيابه قد تقطعت وبليت. وفي هذا يقول:

وإنْ امـرأً يَـغْـدُو وحَـجْـرٌ وراءه
وجَـوٌّ ولا يَـغْـزُوهُـمـا لَـضَـعِـيْـفُ[2]
إذا حُـلَّةٌ أبـلـيـتـهـا ٱبْـتَـغَـتْ حُـلَّةً
بـسَـانِـيَـةٍ طَـوْعِ الـقِـيـادِ عَـلِـيـفُ[3]
سَـعَـى الـعَـبْـدُ إثـري سـاعـة ثـم رَدَّه
تَـذَكُّـرُ تـنُّـور لـه ورغـيـفُ

أما الفئة الخطيرة من الصعاليك، تلك التي مثلها عبيد الله بن الحر الجعفي، الذي وضع نصب عينيه الدولة الأموية وأموالها. فأغار على بيوت مال الدولة في كثير من النواحي،

(١) العياب: جمع عيبة وهو ما تحفظ فيه الثياب الغالية.
(٢) جو: اسم لناحية باليمامة.
(٣) السانية: الناقة، عليف: معلوفة معني بها.

واستولى على ما بها، وكان يوزع ذلك المال على أفراد جيشه من الصعاليك. وخاض في سبيل ذلك حروباً ضارية ضد عمال الدولة وقادتهم في ولاية عبيد الله بن زياد على العراق. ثم تحول إلى مصارعة جيش المختار الثقفي الذي أرسله إليه بعد أن سيطر على الكوفة، للقضاء عليه ولإنقاذ أموال المناطق التي بايعت له منه، ولكنه هزم جيشه شر هزيمة. ولما قتل المختار وبايع أهل العراق لعبد الله بن الزبير، وتولى أخاه مصعباً على العراق اصطدم ابن الحر بجيوشه المتوالية «وقاتلها قتالاً عنيفاً وفتك بها فتكاً ذريعاً». وبالرغم من هذه الحروب فإنه بقي مشغولاً بصعاليكه وأفراسهم، وتجهيزها وتهيئتها للغزو والنهب وفي ذلك يقول:

أقـول لِفْتيَـان الصَّعَـاليـك أَسْـرِجُـوا
عَنَـاجِيـجَ أَدْنَـى سَـيْـرهـنَّ وَجِـيْـفُ[1]

والثابت تاريخياً أنّ عبيد الله بن الحر قد أغار على بلاد كثيرة، واغتصب ما بخزائنها من أموال، مؤيداً بصعاليكه الذين وثقوا به، ووثق بهم فقد أغار «على الأنبار وأخذ ما كان في بيت مالها وقسمه بين أصحابه» وغزا كَسْكَر وقتل «عاملها وسلب ما ببيت مالها وفرقه بين رفاقه».

---

(١) العناجيج: الخيل الكريمة.

وبهذا نستطيع القول إن صعاليك العصر الأموي تشبهوا بصعاليك العصر الجاهلي من ناحية الغزو والسلب والنهب، وآمنوا أن القوة، هي الوسيلة الوحيدة التي تعيد اعتبارهم في الحياة التي اختلت مقاييسها بين البشر.

غاياتهم وأهدافهم

إنّ أهم ما كان يشغل بال الصعاليك الأمويين مشكلة الفقر والغنى، وقضية العصبية القبلية، ومسألة الثورة على الدولة، وتقويض أركانها. وقد عبروا عن مساوىء الحكم، والمفاسد الاقتصادية والاجتماعية أوضح تعبير، وصوروها أصدق تصوير. فهذا الأحيمر السعدي يصرخ محتجاً على النظام الاقتصادي المختل، وينادي بالعدالة الاجتماعية إذ رأى نفسه بائساً لا ناقة له ولا بعير، بينما غيره يملك الإبل الكثيرة، والثروة أيضاً ويقول:

وإنّي لأستحي من الله أن أُرَى
أُطُوفُ بِحَبْلٍ لَيْسَ فيه بعير
وأن أسألَ المرءَ اللئيم بَعِيْرَهُ
وبُعْرَانُ ربِّي في البلادِ كثير

أما مالك بن الريب، فيصف بخل الدولة عليه، مع العلم أنها تستوفي من الناس الأموال.

أحـقـاً عـلى الـسُّـلطان أمَّـا الـذي لـه
فَـيُـعْـطَى وأمّـا مـا عـليـه فـيـمـنـعُ

وقد أظهر الشعراء الصعاليك في العصر الأموي مشكلة الفقر، وما كانوا يعانونه من العقد النفسية لفقرهم وغنى غيرهم. وهذا أبو النشناش يرى أن الإملاق والإخفاق في بلوغ المراد من الغنى أسوأ ما يمكن أن يبتلى به إنسان.

فـلم أرَ مِثْـلَ الـفَقْـرِ ضـاجَـعَـهُ الـفَتَى
ولا كَـسَـوادِ الـليـلِ أَخْـفَـقَ طَـالِـبُـهْ

لكن عبيد الله بن الحر الجعفي يرى أن المال يصنع الجاه والرفعة لصاحبه، والفقر يصيب الإنسان بالخمول والقنوط.

ألـم تـر أنّ الـفَـقْـرَ يَـزْري بـأهْـلِهِ
وأنَّ الـغـنَّـى فيـه الـعُـلى والـتَّـجَـمُّـلُ

لهذا نرى أنّ إيمانهم بتغيير الأوضاع، قائم على مبدأ القوة، ويعتمدون من أجل ذلك الغزو والاغتصاب والانتهاب، للتخلص من آفة الفقر، والانعتاق من سيئاته. واستقر في أعماقهم أن لا سبيل إلى نيل ما يريدون من الثروة، والمكانة الممتازة، إلاّ بركوب الأخطار واقتحام المهالك. مسلحين بأن الموت يدرك الأحياء، وأن موت

الإنسان بشرف وهو يسعى لفرض وجوده وإصلاح حاله خيرٌ له من أن يلقى حتفه وهو قاعد ذليل. وفي ذلك يقول أبو النشناش:

فَعِشْ مُعْذِراً أومتْ كريماً فإنني
أرى الموتَ لا يُبْقي عَلَى من يُطالبُهْ

ونرى أن أولى مهمات وأهداف الصعاليك في العصر الأموي، كان تحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس، سواء في الثروة أو في المكانة. وهذا عبيد الله بن الحر الجعفي يصف صعاليكه وما كانوا يأخذون به أنفسهم من التلاحم والتعاون والمساواة، وما كانوا يتحلون به من الجلال والوقار والتسامي والتعالي:

ولليل أبناءٌ وللصُّبحِ إخوةٌ
وأبناءُ ليلي مَعْشري وقبيلي
إذا نَطَقُوا لم يُسْمَعِ اللّغْوُ بَيْنَهُمْ
وإنْ غَنِمُوا لم يفرحوا بجزيلِ

ويحدثنا عن سياستهم العادلة، وما كانت تقوم عليه من الانصاف والتساوي في الحظوظ التي كانت تفرض لكل منهم فيما كانوا ينهبونه من الأموال، ويستولون عليه من الأسلاب:

إذا مـا غَنِمْنَـا مَغْنَمـاً كـانَ قِسْمَـةً
ولـم نَتَّبـعْ رَأْيَ الشَّـحيـح الـمتَـارِك

أقـولُ لَـهُـمْ كِـيْلُو بـكـمَّـةِ بـعضِـكُـمْ
ولا تجعلوني في النـدى كـابـن مـالـك

والمشكلة الثانية التي تبرز في شعر الصعاليك الأمويين هي مشكلة العصبية القبلية. والحق أنها لم تستحوذ على اهتمامهم جميعاً، فقد شغل بها خلعاؤهم وجناتهم أولئك الذين كان من رأيهم أن القبيلة ينبغي لها أن تحافظ على أبنائها وتنصرهم ظالمين أو مظلومين. وكان إيمانهم بالعصبية القبليـة وبالحيـاة الجاهليـة وما فيهـا من تعصب واعتداد بالأصول والأنسـاب، ومن فوضى وتنـازع وتصارع، ومن اعتمـاد على القوة والسيف، ومن تمجيد للبطولة والشجاعة والبطش والفتك. ومن تمسُّك بالأخذ بالثأر. وهذا السمهري بن بشر العكلي، يطلب من قبيلته بأن تهب للثأر له ممن أساءوا إليه. ويطلب هذا وهو في سجنه إذ يقول:

فَمَنْ مُبْلغٍ عـنِّي خَـليلـيَ مـالـكـاً
رِسَـالَـةَ مَـشْـدُودِ الـوِثـاقِ غـريـب

ومـن مبـلغ حَـزْمـاً وتَـيـمـاً ومـالـكـاً
وأربـابَ حـامـي الحَـضْـرِ رَهْطَ شبيب

لـيُبْـلُوا الـتـي قـالـتْ بـصـحـراءَ مَـنْـعَـجٍ
ألـى الشَّـرْكُ يـا ابنَيْ فـائِـدِ بـنِ حبيب
لِتَضْـرِبَ فـي لحـمي بِسَهْـمٍ ولـم يـكُـنْ
لـهـا فـي سِـهَـامِ الـمـسـلمـين نـصـيبُ

إنه يحرض أخاه وزعماء قبيلته على الانتقام ممن وشت عليه إلى الشرطة وهو مختف في الصحراء، لأن المكافأة التي خصصها عبد الملك بن مروان لمن يساعد في القبض عليه قد أغرتها، فاجتهدت في البحث عنه حتى وجدته، ووقع في يد الشرطة وأودع السجن. ويحمل قبيلته أيضاً مسؤولية قتل المرشد عليه والثأر له من تلك الجماعة.

حتى إن بعضهم كان يهجو قبيلته لأنها لم تنتصر له، ولم تقف بجانبه. وهذا القتال الكلابي يستغيث بقومه وقت الشدة، لكنهم لم يستجيبوا له ولم يسرعوا لرد السّياط عنه. حتى وصم قبيلته وزعماءها باللؤم والجبن، وقد نفى المروءة عنهم وجردهم من الصفات الحميدة. وفي هذا يقول:

إذا مـا لَـقِيْـتُـم راكـبـاً مُـتَـعَـمِـمـاً
فـقـولـوا لـه: مـا الـراكب الـمُـتَـعَـمِّـمُ
فـإنْ يَـكُ مِـنْ كَـعْـبِ بـنِ عَـبْـدٍ فـإنَّـهُ
لئـيـمُ الـمُـحَـيَّـا حَـالِـكُ الـلَّوْنِ أدْهَـمُ

دَعَوْتُ أبا كَعْبٍ ربيعةَ دَعْوَةً
وفوقي غواشي الموت تَنْحي وَتَنْجُمُ[1]
ولم أَكُ أدري أَنَّهُ ثُكْلُ أُمِّهِ
إذا قيلَ للأحرارِ في الكُربَةِ اقْدُمُوا
فلو كنتُ من قَوْمٍ كرامٍ أعِزَّةٍ
لَحَامَيتَ عنّي حِيْنَ أَحْمَيَ وأَضْرَمُ[2]
دَعَوْتُ فكَمْ أَسْمَعَت من كلِّ مُؤْدَنٍ
قَبيحِ المحيَّا شَانَهُ الوجهُ والفَمُ[3]
ولكنما قومي قُمَاشَةُ حَاطِبٍ
يُجَمِّعُها بالكفِّ والليلُ مُظْلِمُ[4]

وكانوا يظهرون الشماتة بقبائلهم إذا تعرضت لقهر من قبائل ثانية. ويبدو ذلك في قول الأحيمر السعدي الصعلوك الخليع:

وَنُبِّئْتُ أنَّ الحيَّ سَعْداً تخاذلوا
حِمَاهُمْ وَهُمْ لو يَغْضَبُون كَثيرُ

(١) الغواشي: الدواهي. تنحى: تضرب وتطعن. تنجم: تظهر.
(٢) حمى: أخذته الغيرة. ضرم: احقد غضباً.
(٣) المؤدن: قصير العنق، ضيق المنكبين مع قصر الألواح واليدين.
(٤) القماشة: فتات الأشياء، يطلق على أرذال الناس.

أَطَاعُوا لِفِتْيَانِ الصَّبَاحِ لِئَامِهِمْ
فَذُوقُوا هَوانَ الحربِ حيثُ تدورُ

وهذا عبيد بن أيوب الذي ينتمي إلى نفس قبيلة الأحيمر السعدي، إذ يرى أنّ استكانة قبيلته ومذلتها وهوانها تعود إلى تمزقها وجبن أبنائها وانقسامهم وتقاعسهم إزاء الملمات والكوارث، يقول:

إذا ما أَرَادَ اللَّهُ ذُلَّ قبيلةٍ
رَمَاهَا بِتَشْتِيتِ الهَوَى والتَّخاذل

وأولُ عَجْزِ القَوْمِ عَمَّا يَنُوبُهُمْ
تَدَافُعُهُمْ عَنْهُ وطُولُ التَّوَاكُل

ومن مظاهر الروح الجاهلية المتفشية في العصر الأموي، وخاصة عند الصعاليك أنهم لم يؤمنوا بحل المشاكل بالطرق السلمية، وكانوا يفضلون الأخذ بالثأر. ومن أوضح ما يدل على ذلك أنّ جدة القتال الكلابي كانت من بني العجلان وأن بني جعفر قتلوا رجلاً منهم. فأخذ يحرض أخواله للأخذ بثأرهم، غير أنهم قبلوا الدية فعيّرهم بذلك قائلاً:

لعمري لَحَيٌّ من عقيلٍ لقِيْتُهُمْ
بِخَطمةَ أو لاقَيْتُهُمْ بالمَنَاسِكِ[1]

(١) خطمة: جبل.

أَحَبُّ إلى نَفْسي وأَمْلَحُ عندها
من السَّرواتِ آلِ قَيْسِ بنِ مالكِ[1]
إذا ما لَقِيتُمْ عُصْبَةً جَعْفَرِيَّةً
كَرِهْتُمْ بَني اللكْعاءَ وَقْعَ السَّنابكِ[2]
فَلَسْتُمْ بأخوالي فلا تَصْلِبَنَّني
ولكنَّها أُمِّي لإحدى العَواتِكِ[3]
قُتِلْتُمْ فلمَّا أنْ طَلَبْتُمْ عَقَلْتُم
كذلك يُؤتى بالذَّليلِ كذلكِ[4]

وهناك طائفة من الصعاليك تمردت على الدولة وحاولت اقتطاع أجزاء منها لإقامة حكومة الصعاليك عليها. وتمثل هذا الاتجاه بالصعاليك السياسيين. لذلك ناهضوا الدولة الأموية وقاتلوها قتالاً عنيفاً. والمؤكد أن هذه الجماعة من الصعاليك كانت من القبائل التي غضب عليها بنو أمية، وأبعدتها عن المشاركة في الحكم. وخاصة عبد الله بن الحجاج الثعلبي، فقد كان من قيس عيلان، أولئك الذين مال الأمويون عنهم منذ مطلع حكمهم، فنقموا لذلك وانتهزوا

---

(١) السروات: الأشراف.

(٢) اللكعاء: الحمقاء.

(٣) العواتك: من بني سليم.

(٤) عقل: قبل الدية.

الفرص للانقضاض عليهم ولتقويض دعائم دولتهم. وقد ثاروا مع الضحاك بن قيس أيام يزيد بن معاوية، وحاربوا مروان بن الحكم في مرج راهط، ولكن مروان تغلب عليهم وقضى على زعيمهم الضحاك.

والصعلوك السياسي الأول هو عبيد الله بن الحر الجعفي. فقد كانت له آماله وأعماله مما ميزه عن غيره من الصعاليك السياسيين، وكان طموحاً محباً للرئاسة. فجمع صعاليكه وكوّن لنفسه حزباً منهم، وأخذ يغير على ولايات الدولة ويفتك بعمالها ويستولي عليها بعض الوقت. وقد وصفه الطبري بأنه «كان غيوراً لا يأتي القبيح ولا يعاقر الخمر». وكان «يجهد للمحافظة على النظام في البلاد التي يسيطر عليها كما كان لا يؤذي الناس ولا ينهب أموالهم، وإنما كان يستولي على أموال الدولة».

والملاحظ أن الصعلكة في العصر الأموي لم يتغير مفهومها ومعناها عما كانا عليه في الجاهلية. فقد ظل هؤلاء يشبهون أسلافهم الجاهليين في فقرهم وإبائهم وترفعهم، وفي حياة التشرد، وفي سعيهم وراء الغنى. والفرق الوحيد أن طائفة الصعاليك السود والأغربة لم نشاهدها في العصر الجاهلي، بل كانت في العصر الأموي. وأن بعضهم استبد

به الحنين إلى الوطن والأهل والعشيرة وارتعدت فرائصه، واستبد به الخوف من توعد السلطان له. كما أن بعضهم كانت له أهداف سياسية اجتماعية. وهذه الصفات لم تكن لدى صعاليك الجاهلية.

أغراضهم الشعرية
موضوعات وخصائص

١ - وصف السجون وحياتها:

وهذا الموضوع من الموضوعات الجديدة التي تميز به شعر الصعاليك الأمويين عن شعر الصعاليك الجاهليين. وجدَّ هذا الموضوع نتيجة الحياة الاجتماعية والسياسية القائمة في العصر الأموي، والتي لم تكن في العصر الجاهلي. فالسلطة الأموية مسؤولة عن الناس، وكان عليها أن تتعقب كل مفسد ولص وقاتل، حتى تعثر عليه وتنزل به ما يستحق من العقاب. لذلك اعتبرت السلطة الأموية الصعاليك مفسدين في الأرض، وعابثين بالنظام، وخارجين على القانون. وأخذت تطاردهم فارضة المكافآت المغرية لمن يساعد في القبض عليهم، حتى إذا ما وقع بقبضتها أحد منهم سامته ألوان العذاب.

وممَّن وقع في قبضة السلطة الأموية مالك بن الريب التميمي، وأبو النشناش التميمي وجحدر بن معاوية العكلي،

وجحدر بن مالك الحنفي ، وشظاظ الضبي ، والقتال الكلابي وعبد الله بن الحجاج الثعلبي ، وعبيد الله بن الحر الجعفي ، وغيرهم من الصعاليك ونال هؤلاء جزاءهم، وكان الجزاء حبساً، أو جلداً، أو قتلاً، حسب الذنب الذي اقترفه الصعلوك.

فهذا جحدر بن معاوية العكلي يصور كرهه لسجن الحجاج بالكوفة، واندراسه واشتماله على مجموعة من المحبوسين كانوا يلقون فيه أعتى أصناف العقاب، حتى لكأن النار التي يتوعد الله بها المشركين استمدت لهبها وهولها منه. وفيه يقول:

يـا رب أَبْـغَضُ بَيْـتٍ عِـنْـدَ خـالـقـه
بَيْـتٍ بِـكُـوفَـانَ مـنـه أُشْـعِـلَتْ سَـقَـر

مـثـوى تَـجَـمَّـعَ فيـه الـنـاسُ كُـلُّهـم
شَـتَّـى الأمـور فـلا وِرْدٌ ولا صَـدَر

دَارٌ عـليهـا عَـنَـاءُ الـدهـر مُـوحِـشَـةٌ
مـن كُـلِّ أُنسٍ وفيهـا البـدو والـحضـر

وقد وصفوا القيود الحديدية وثقلها على أرجلهم، وذكروا ألوانها وأنواعها، وما كانوا يقاسون منها حتى كانت في مرات عديدة تبكيهم من شدة الألم. وجاء على لسان عطارد بن قران ما يثبت ذلك:

لَيْسَتْ كليلةِ دَوّارٍ يُؤَرِّقني
فيها تَأَوُّه عانٍ من بني السِّيد
ونَحْنُ من عصْبَةٍ عَضَّ الحديدُ بهم
مِنْ مُشْتَكٍ كَبْلَه فيهم ومَصْفُودِ

ويصف عبيد الله بن الحر الجعفي سجنه، وسجانه، وبابه المنيع وقيوده السوداء التي كانت مربوطة برجليه، والتي كانت ضيقة تشد على قدميه لا يستطيع منها أن يتحرك بسهولة.

من مُبْلغُ الفتيان أنَّ أخاهم
أتى دُونَه بابٌ شديدٌ وحَاجِبُهْ
بمنزلةٍ ما كان يَرْضَى بمثلها
إذا قامَ عَنَّتْهُ كُبُولٌ تُجاوِبُهْ
على الساقِ فوقَ الكَعْبِ أسودُ صامتٌ
شديدٌ يُداني خَطْوَهُ ويُقارِبُهُ

وبعد السجن تحدث هؤلاء الصعاليك عن ظلم الحراس، الذين كانوا يحولون بينهم وبين زوارهم. وصوروا في شعرهم الوان التعذيب، ووسائله المختلفة وآثاره على أجسامهم. وخير من صور هذا اللون القتال الكلابي بقوله:

وكـالـىءُ بـابِ الـسـجـن ليس بـمُـنْـتَـهٍ
وكـانَ فـراري مـنـه لَيْسَ بِـمُـؤْتَـلي[1]
إذا قـلتُ رَفِّهْـنـي مـن الـسِّـجْـنِ سـاعـةً
تَـدَارَكْ بـهـا نُـعْـمَـى عـليَّ وأفْـضِـل
يَـشُـدُّ وثـاقـي عَـابِـسـاً وَيَـتُـلُّـنـي
إلـى حَـلَقَـاتٍ فـي عـمـودٍ مُـرَمَّـل[2]
أقـولُ لَـهُ والـسـيـفُ يَـعْـصِـبُ رأسَـهُ
أنـا ابـنُ أسـمـاءَ غَـيْـرَ الـتَّـنـحُّـلِ[3]

إنه يطلب برجاء من حارسه إن يخرجه من سجنه ولو لساعة واحدة، يتنفس فيها الحرية، ويخفف عن نفسه وطأة السجن والضيق، لكنه لم يستجب له بل زاد في إحكام القيد على رجليه، وأوثق سلسلته بقوة في حلقة مربوطة بعمود كان ملطخاً بالدم.

ويعتبر جحدر المحرزي أن السجن جبن وعار وهوان على القوي. في حين يعتبره الجبناء مفخرة يتغنون بها ونراه يتحدث عن ألم السياط حتى يشبه من خرج من سجنه بمن كوته النار وشوته شياً.

---

(١) ليس بمؤتلٍ: ليس بمقصر.
(٢) يتل: يجر بقسوة وغلظ. مرمل: ملطخ بالدم.
(٣) التنحل: الادعاء.

أقـولُ لـلصَّحْـبِ فـي الـبـيـضـاءِ دُونَـكُـمُ
مِـحـلَّةٌ سـوَّدت بـيـضـاءَ أقـطاري
مـأوى الـفُـتُـوَّةِ لـلأنـذالِ مُـذْ خُـلِقَتْ
عَـنْـدَ الـكـرامِ مَـحـلُّ الـذُّلِ والـعـارِ
كـأنَّ سـاكِـنَـهـا مـن قَـعْـرِهَـا أَبَـداً
لَـدَى الـخـروج كمُـنْـتَـاشٍ مـن الـنـارِ

ويضور الصعاليك خوفهم وهلعهم وهم في حبسهم. إذ كانوا يصابون بالذعر والفزع حينما تفتح أبواب السجن، ويتطلعون إلى الحارس والأخبار التي يحملها إليهم وهم في حالة من الخوف والرهبة. وفي هذا يقول جحدر الحنفي:

يـا صـاحـبيَّ وبـابُ الـسِّـجنِ دُونـكُـمـا
هَـلْ تُـؤْنِـسَـانِ بـصـحـراءِ الـلِّوَى نـاراً
لـو يَتْبَـعُ الحقُّ فـيمـا قـدْ مُنِيْتُ بـه
أو يُـتْـبَـع الـعـدلُ مـا عُـمِّـرْتَ دُوَّاراً
إذا تـحـركَ بـابُ الـسِّـجْـنِ قَـامَ لـه
قَـوْمٌ يَـمُـدُّونَ أَعْـنـاقـاً وأَبْـصَـارا

وهذا السمهري بن بشر العكلي يرثي نفسه لصاحبته التي طافت بخيالها عليه وهو نائم في حبسه، ورجله مقيدة بقيد أسود ضخم. وخوفه الوحيد من تنفيذ حكم الاعدام فيه، وفيها يكون الفراق الأبدي بينها وبينه.

ألا طَرَقَتْ لَيْلَى وساقي رهينَةٌ
بأسمرَ مشدودٍ عَلَيَّ ثقيلُ
فما البينُ يا سلمى بأنْ تَشْحَطَ النَّوى
ولكنْ بَيْنناً ما يُريْدُ عَقِيْلُ
فإنْ أنْجُ منها أنجُ مِنْ ذي عظيْمَةٍ
وإنْ تَكُنِ الأُخْرَى فتلك سَبيلُ

ووصفوا تضرعهم إلى الله، وتمنيهم عليه أن ينقذهم مما هم فيه من الشدة والشقاء، وأن ينجيهم من عظيم بلاء يشعرون أنه سيحل بهم.

ويبرز التوسل والتضرع إلى الله في قول جحدر الحنفي:

إنـيّ دَعَوْتُكَ يا إلهَ محمدٍ
دَعْوَى فَأَوَّلُها لي استِغْفَارُ
لِتُنْجيرَني مِنْ شَرٍّ ما أنا خائفٌ
رَبَّ البَريَّة لَيْسَ مِثْلكَ جَارُ
تَقْضي ولا يُقْضَى عَلَيْكَ وإنّما
ربي بِعِلْمِكَ تَنْزِلُ الأَقْدَارُ
كَانَتْ مَنَازِلُنَا التي كُنَّا بها
شَتَّى وأَلَّفَ بَيْنَنَا دَوَّارُ

سجنٌ يُلاقي أهْلُهُ مِنْ خَوْفِهِ
أزْلاً ويُمْنَعُ مِنْهُم الزُّوَّار

ويبرز الشوق والحنين في حنينهم إلى الوطن. فهذا يعلى الأحول اليشكري الأزدي تفيض نفسه بالحنين إلى بلاده وطيرها، وجمالها وشجرها، وأنحائها وأنهارها، وحيوانها ويحن إلى أصحابه وليالي اللهو والسمر. ويقول:

أرقتُ لِبَرْقٍ دُوْنَهُ شَدْوَان
يَمانٍ وأهْوَى البَرْقَ كُلَّ يمانِ
فَبِتُ لَدَى البَيْتِ الحَرَامِ أشِيمُهُ
ومَطْوَايَ مِنْ شَوْقٍ لهُ أرقانِ
إذا قُلْتُ شِيْمَاه يقولان والهوى
يُصَادِفُ مِنَّا بَعْضَ ما تَرَيَان
جَرَى مِنهُ أطْرَافَ الشَّرَى فمشيَّع
فأبيان فالحيَّان من وَمَران
هنالك لو طوَّفتما لَوَجَدْتُما
صديقان اخوانٍ بها وغوان
وعَزْف الحمام الوَرْقِ في ظلِّ أيْكَةٍ
وبالحيِّ ذي الرَّوْدَين عَزْف قيان
فليتَ القِلاص الأُدْمَ قد وَخَدَتْ بنا
بوادٍ يمانٍ ذي رُباً ومَجاني

بِـوَادٍ يَـمَـانٍ يُـنْـبِـتُ الـسِّـدْرَ صَـدْرُه
وأسـفـلـه بـالـمَـرْخِ والـشَّـبَـهـان
ولـيـتَ لَـنَـا بـالـجـوز والـلوّزِ غَـيْـلَةٌ
جنـاهـا لنـا مِنْ بـطن حَلْيَـة جـانـي
ولـيـتَ لَـنَـا بـالـدِّيـك مُـكَّـاء روضـةٍ
عـلى فَـنَـنٍ مِـنْ بـطن حِـلْيَـةَ دَانـي

هذا باختصار بعض ما كانوا يعانونه في حياة السجن وأصبح شعر الصعاليك في هذا وثيقة اجتماعية، نقرأ فيها صفات ومواصفات حياة السجن في العصر الأموي.

٢ ـ الحنين إلى الاستقرار

ونلتقي في شعر الصعاليك الأمويين حنيناً زائداً، إلى الاستقرار بعد حياة التشرد والمطاردة، واللصوصية وما يصاحبها من تشرد، وابتعاد عن الأوطان والأهل والأحبة. وهذا مالك بن الريب قد أقسم أن يترك حياة التلصص، وأن ينفصل عن أصدقائه. الصعاليك الذين سلخ شطراً من عمره يقطع الطريق معهم، مبتعداً عن وطنه ومغترباً عن أهله. وعزم على ترك الصعلكة واللصوصية بعدما أحس بملل تلك الحياة. حيث أحس بشوق إلى زوجته. وإلى حياة الهدوء بجانبها، لأن طيفها يسري إليه، مذكراً بحق الزوجية عليه. ويقول:

عَـلَيَّ دمـاءُ الـبُـدْنِ إنْ لـم تـفـارقـي
أبـا حَرْدَبٍ يـومـاً وأصحـابَ حَـرْدَبِ[1]

سَـرَتْ في دُجَـا لَيْـلٍ فـأَصْبَـحَ دُوْنَهـا
مَـفَـاوِزُ حُـمْـرَانِ الـشَّـرَيْـفِ فَـغُـرَّبِ[2]

تُـطالِـعُ مِـن وادي الـكـلاب كـأَنَّـهـا
وَقَـدْ أَنْـجَـدَتْ مـنـه عَـقـيـلَةُ رَبْـرَبِ

ونراه في موضع آخر يأسف ويتحسر لبعده عن بلاده، ومفارقته صاحبته ليلى بل إنه متألم حينما يتذكر فتيان قومه وفتياتهم يعيشون حياة الهدوء والاستقرار ويتنقلون بأمان، بينها هو مشرد بعيد، لا يشارك أهله وعشيرته في حياة الهدوء والاطمئنان.

رأيـتُ وقَـدْ أتـى نَـجْـران دونـي
لِـلَيْـلَى بـالـغُـمَـيِّـم ضَـوْء نـار[3]

وَتَـصْـطَادُ الـقُـلوبَ عَـلَى مَـطَاهَـا
بـلا جَـعْـدِ الـقُـرُون ولا قِـصـار[4]

---

(١) البدن: الأضحية تهدى إلى البيت العتيق وتنحر.

(٢) حمران: ماء في ديار الرباب. الشريف: ماء بنجد. غرب: جبل دون الشام في ديار بني كلب.

(٣) الغميم: ماء لبني سعد.

(٤) القرون: ضفائر الشعر. على مطاها: على صلابتها.

وتَبْسِمُ عَنْ نَقيٍّ اللَّوْنِ عَذْبٍ
كما شِيْفَ الأقاحي بالقِطار(١)
أتَجْزَعُ أنْ عَرَفْتَ بِبَطْنِ قَوٍّ
وصحْراءِ الأُدَيْهِمِ رَسْمَ دَار
وأنْ حَلَّ الخَليطُ ولَسْتَ فيهم
مَرَابِعَ بَيْنَ دَحْلٍ إلى سَرار
إذا حَلُّوا بعائجةٍ خلاءٍ
تُقَطِّفُ نَوْرَ حَنْوَتِها العَذاري

ويبدو الحنين في أبيات الأحيمر السعدي، الذي قدم العراق وقطع الطريق فطلبه سليمان بن علي أمير البصرة وأهدر دمه. ففر إلى بلاد فارس. وهناك انتابه حنين إلى الوطن والأهل، واسترجع أيامه الهادئة بينهم، واللاهية مع شباب قومه. ومن مغتربه البعيد يدعو بالخير لأهله وأرضه ونخيلها، وإننا نجد البؤس والتبرم بالحياة لما يلاقي في منفاه من المشقة والارهاق. ويقول:

لَئِنْ طَالَ ليلي بالعِراق لرُبَّما
أتَى ليَ ليلٌ بالشآم قَصِيرُ
معي فِتيَةٌ بيضُ الوُجُوه كأنَّهم
على الرَّحْلِ فوْقَ النَّاعجات بُدورُ

(١) شيف: زين. القطار: المطر.

أيا نخلاتِ الكَرْم لازال رائحاً
عليكن مُنْهَلُّ الغمام مطيرُ
سُقِيْتُنَّ مادامتْ بِكَرْمَانَ نخلةٌ
عَوَامر تَجري بينهن بُحورُ
وما زالَتِ الأيامُ حتى رأيتني
بَدَوْرَقَ مُلقىً بينهن أدورُ[1]

وهذا السمهري بن بشر العكلي، يتذكر محبوبته التي كان له معها صلة ومودة قبل رحيله وهروبه في البلاد الواسعة:

وأُنْبئْتُ ليلى بالغَرِيَّيْن سلَّمت
عليَّ ودوني طَخْفَةٌ ورِجَامُها[2]
فإنَّ التي أهْدَتْ على نأيِ دارِها
سَلاماً لمرْدُودٌ عليها سَلامُها
عَدِيْدَ الحَصى والأَثْلِ مِنْ بَطْنِ بَيْشةٍ
وطَرْفَائِها ما دام فيها حَمامُها[3]

وهناك شواهدَ كثيرة تدل على الحنين، وتصور جانب الشوق لحياة ملؤها الأمان والاطمئنان، بعد حياة التلصص والصعلكة، والبعاد والتشرد.

---

(١) دورق: بلد نجوزستان.

(٢) الغريان وطخفة: موضعان.

(٣) بيشة: وادٍ يصب في نجد. الطرفاء: نخل باليمامة.

٣ ـ الاعتذار والتوبة:

لقد تاب بعض الصعاليك، وندموا على ما قدموا من أعمال سيئة. وأخذوا يستغفرون الله كي لا يدخلهم النار. وهذه المشاعر استولت عليهم في أواخر حياتهم وبعد أن تقدم بهم العمر، إذ مضوا يفكرون في الثواب والعقاب، وأحسوا بالندم والخوف من عذاب الآخرة، نتيجة أعمالهم السيئة التي اقترفوها في ريعان الشباب. وهذا عبيد بن أيوب خائف من العذاب، لذلك يتوجه إلى الله ويطلب التوبة والاستغفار، ويرجو عفوه، لأنه أخطأ صغيراً، ولم يكن حينها بصيراً بعواقب الأمور، ولم يكن متعمقاً في الدين ولا عارفاً لأوامره ونواهيه. وفي هذا يقول:

يا رب عَفْوَكَ عَنْ ذي توبةٍ وَجلٍ
كأنَّه مِنْ حِذارِ الناس مَجْنُون
قَدْ كان قَدَّم أعمالاً مُقَارِبَةً
أيامَ ليس له عَقْلٌ ولا دين

ويرد في موقع آخر على الشامتين به، الذين يقولون إن مصيره إلى النار، ويسفه آراءهم لأنهم يتكلمون بما لا علم لهم به، وهم من الجماعات التي اسودت قلوبها، ويئست من رحمة الله وعفوه وغفرانه: ويقول.

يـا ربُّ قَـدْ حَلَفَ الأعـداءُ واجتـهـدوا
أيمـانَـهـم أنَّـني من سـاكـني الـنـار
أَيَـحْـلِفُـونَ عـلى عَـمْـيـاءَ وَيْـحَـهُـمُ
مـا عِلْمُـهُـمْ بعَـظِيْـمِ الـعَـفْـو غفَّـار

أما الأحيمر السعدي فيبلغ رفاقه من اللصوص أنه تاب وتوقف عن سلب القوافل، ونهب ما فيها. ومع ذلك فإنه يجاهد نفسه ويزجرها لكي لا تتطلع إلى الماضي حيث السرقة واللصوصية. وأثناء توبته نراه يحن إلى أيام اللصوصية والفتك، حيث كان يغتصب القوافل وما فيها من بضائع ثمينة، والتي تمثل فترة صباه وفتوته. ونراه يقول:

قُـلْ للصـوصِ بني اللَّخْـنَـاءِ يَحْتَسِبُـوا
بَـزَّ الـعـراق ويـنـسـوا طُـرْفَـةَ الـيَـمـنِ
وَيَـتْـركُـوا الـخَـزَّ والـدِّيـبـاجَ تَـلْبَـسُـه
بِيضُ المـوالي ذوو الشَّـزَرات والـعُكَـنِ[1]
أَشْـكُـو إلى الله صَـبْـري عَنْ رَوَاحِـلِهِمْ
ومـا أُلاقـي إذا مَـرَّتْ مـن الـحَـزَنِ
لـكنْ لَـيَـالي نَـلْقَـاهُـم فَـنَسْـلُبُـهـم
سـقـيـاً لـذاك زمـانـاً كـان مِـنْ زمـنِ

---

(١) الشزرة: البغض والحقد. العكن: أطواء البطن من السمن.

ولقد تحول بعض هؤلاء الصعاليك إلى حكماء، ينصحون الناس، ويرشدون البشر. ويمثل هذا الجانب جحدر بن معاوية العكلي. الذي يصف حياته، وكيف تقلب فيها بين أعطاف النعيم والبؤس، والشدة واليسر. وينهى عن الطيش والحمق، ويدعو إلى التأني واتباع الحق، والأخذ بالرأي السديد والكف عن التنابذ وإيذاء الناس الضعفاء. وله في هذا، أبيات هي:

بكلِّ صُروفِ الدَّهرِ قَدْ عِشْتُ حِقْبَةً
وَقَدْ حَمَّلَتْني بَيْنَها كُلَّ مَحْمَلِ

وَقَدْ عِشْتُ منها في رخاءٍ وغِبْطَةٍ
وفي نِعْمَةٍ لَوْ أَنَّها لا تَحَوَّلِ

فإنَّكَ لا تدري إذا كنتَ راجياً
أفي الرَّيْثِ نُجْحُ الأمرِ أم في التَّعَجُّلِ

ولا تَمْشِ في الحربِ الضَّراء ولا تُطعْ
ذوي الضَّعْفِ عند المأزق المُتَحَفِّلِ

ولا تَشْتُم المولى تَتَبَّعْ أَذَاتَه
فإنك إنْ تَفْعَلْ تُسَفَّه وتَجْهَل

ولا تخذل المولى لسُوءِ بَلائِهِ
مَتَى تَأْكُلِ الأعداءُ مَوْلَاكَ تُؤْكَلِ

إنّ ما ورد يكشف بوضوح عما أصاب حياة الصعاليك

الأمويين من تطور فكري، لازم فترتين من الزمن، فترة الفتوة والصعلكة، وفترة الهرم والتوبة.

٤ ـ التشرد والتأبد:

لقد وصف الصعاليك الأمويون حياة التشرد في الصحراء، والتأبد في مجاهل الأرض وما استولى عليهم من أهوال ومخاطر في الأماكن النائية البعيدة، ووصفوا المصاعب والمتاعب التي لازمتهم في فرارهم من وجه السلطة، وما في تلك الحياة من صعوبة في العيش، وبؤس وشقاء، وكثرة ترحال وانتقال. ويوضح مالك بن الريب هذا الجانب من حياة الصعاليك في قوله:

أَدْلَجْتُ في مَهْمَهٍ ما إنْ أَرَى أَحَداً
حَتَى إذا حَانَ تَعْرِيسٌ لِمَنْ نَزَلا[١]

وَضَعْتُ جَنْبي وَقُلْتُ اللّهُ يكْلَؤُني
مَهْمَا تَنِمْ عَنْكَ مِنْ عَيْنٍ فما غَفَلا[٢]

والسَّيْفُ بيني وبَيْنَ الثَّوْب مَشْعَرُهُ
أَخْشَى الحوادث إنّي لم أَكُنْ وَكِلا[٣]

---

(١) الإدلاج: السير في الليل. التعريس: النزول بآخر الليل.
(٢) يكلأ: يرعى ويحفظ.
(٣) مشعره: موضعه ومكانه.

مـا نِـمْـتُ إلاَّ قَـلِيْـلاً نِـمْـتُـه شَئِـزاً

حتى وَجَـدْتُ عـلى جُثْـمَـانِيَ الـثِّقَـلا[1]

انه يصف حياته الضاربة في القفار الموحشة التي لا يجتازها الناس، باحثاً عن مكان أمين يأوي إليه ليله. ولكنه لا ينام ملء عينيه، بل يبقى حذراً قلقاً متأهباً لكل طارىء. ويبقى مستعداً لدفع كل مكروه عنه، وكل خطر يلم به.

وهذا مسعود بن خرشة التميمي، يصف خوفه، وإنه لا يجد الأنس والأمان إلاّ في القفار البعيدة، والأماكن الموحشة، حيث لا إنسان، ولا عمران وإنما فيه «كُنُس الظباء وأصوات القطا».

ألا لَـيْـتَ شـعـري هَـلْ أبيـتَنَّ لـيلةً

بِـوَعْسَـاءَ فـيـهـا لـلظبـاء مَـكَـانِسُ[2]

وَهَـلْ أَسْمَعَنْ صَوْتَ القـطا تَنْـدُبُ القـطا

إلـى الـمـاءِ مِـنْـهُ رابِـعٌ وخـوامسُ

وأفضل صورة تنطق عن الوجل والخوف والتأبد في جوف الصحراء تلك التي رسمها عبيد بن أيوب العنبري. إذ كان يظن أن الناس يتحدثون بخبره، ويبحثون عنه ليقبضوا عليه:

---

(١) شئزاً: قلقاً. الثقل: هو أفلح العبد اللص الذي قتله.

(٢) الوعساء: الرملة.

لَقَـدْ خِفْـتُ حَتَى خِلْتُ أنْ لَيْسَ نـاظِـرٌ
إلـى أَحَـدٍ غـيـري فـكِـدْتُ أطِـيْـرُ
وَلَـيْسَ فَـمٌ إلاّ بِـسِـرِّي مُـحَـدِّثٌ
وَلَـيْسَ يَـدٌ إلاّ إلـيَّ تُـشِـيـرُ

ولقد أكثر من الحديث عن تشرده، ووصف نفسه بأنه «أخو فلوات» أو «أخو قفرات» أو «ربيب المفاوز» يقول:

وأضْـحَى صَـديقَ الـذِّئْبِ بَـعْـدَ عَـدَاوَةٍ
وبُـغْض ورَبَّـتْـهُ الـقِـفَـارُ الأَمَـالِسُ

وفي قصيدة ثانية يصف نفسه بالصقر الذي اختطف شاة مسلوخة من أيدي الناس وطار بها، بعيداً. فتعقبه الناس يطلبونه، حتى بلغ القفار البعيدة وعاش مع حيوانات الصحراء، وصادق الجن وألف الحيوان، واكتسب عادات القفار وما فيها. ولكنه يبقى في حيرة وحذر، ويبقى متسلِّحاً بقوسه وسيفه لردع الخطر. وهذه الصور تأتي في قوله هذا:

فَـإنِّي وَتَـرْكِي الإِنْسَ مِـنْ بَـعْـدِ حُـبِّـهِـمْ
وصَـبْـري عَـمَّـنْ كـنـت مـا إنْ أُزايِـلُهْ[1]

(١) زايل: فارق.

لكالصُّقْرِ جَلّى بعد ما صَادَ قِنْيَةً
قَدِيْراً ومَشْوِياً عَبِيْطاً خَرَادِلُهْ[1]

أهابوا به فازداد بُعْداً وصدَّه
عَن القُرْبِ منهم ضَوْءُ بَرْقٍ ووابلُهْ[2]

أَلَمْ تَرَني صَاحَبْتُ صفراءَ نَبْعَةٍ
لها رَبَذِيٌّ لم تُفَلَّلْ مَعَابِلُهْ[3]

وطَالَ احتضاني السيفَ حتى كأنما
يُلاطُ بكشحي جَفْنُهُ وَحَمائِلُهْ[4]

أخو فلواتٍ صَاحَبَ الجنّ وانْتَحَى
عن الإنس حتى قد تَقَضَّت وسائِلُهْ

له نَسَبُ الإنسي يُعْرَفُ نَجْرُهُ
ولِلْجِنِّ منه شَكْلُهُ وشَمَائِلُهْ[5]

٥ ـ مصاحبة حيوان الصحراء:

لقد ألف الصعاليك الأمويون حيوانات الصحراء، ورافقوها، واستأنسوا بها، وجعلوها تشاركهم حياتهم. وقد

(١) جلي: تشوف ونظر. القنية: الشاة. العبيط: الطري. الخرادل: القطع.

(٢) أهابوا به: دعوه.

(٣) الصفراء: القوس. النبعة: خير الشجر للعشي. لم تضلّل معابله: لم ينكر حدها.

(٤) لاط: التصق.

(٥) النجر: الأصل.

زعم بعضهم أنه رافق في مفازة نمراً يطاعمه ويؤاكله. ويذكر الجاحظ: أن القتال الكلابي هو الذي يتميز بذلك عن سائر الصعاليك الأمويين. ودليله على ذلك أنه هو الذي يقول واصفاً مصاحبته للنمر وإلفه له، وكيف أنه كان لا يسامره ولا يحدثه، وإنما كان صامتاً تتوهج عيناه الغبراوان توهجاً، وكيف أنه كان يصطاد الوعول ويأتي بها إليه، فيأخذ منها ما يشاء ويقيم رمقه منها ثم يطرح الباقي له، وكيف أنهما كانا يشربان من نقرة في الجبل فيها بعض الماء الصافي. ويقول في هذا:

وَلِي صَاحِبٌ فِي الغَارِ هَدَّكَ صَاحِباً
هُوَ الجَوْنُ إلّا أنه لا يُعَلَّلُ[1]

إذا ما التقينا كانَ جُلُّ حَدِيثِنَا
صُمَاتٌ وطَرْفٌ كالمعابلِ أَطْحَلُ[2]

تَضَمَّنَتِ الأروى لنا بطعامنا
كلانا له منها نصيبٌ ومأكلُ[3]

---

(١) الجون: النمر. هدك صاحباً: أي ما أجله وأنبله وأعلمه.

(٢) الصمات: الصمت. المعبلة: النصل الطويل العريض. الأطحل: الأغبر في بياض وسمرة.

(٣) الأروى: الوعول. تضمنت: تكفلت.

فَـأَغْـلِبُـهُ فـي صَـنْـعَـةِ الـزاد إنـنـي
أمـيطُ الأذى عـنـه ولا يَـتَـأَمَّـلُ[1]

وكـانـتْ لـنـا قَـلْتٌ بـأرضِ مَـضَـلَّةٍ
شـريـعَـتُـنَـا لأيِّـنَـا جَـاءَ أوّلُ[2]

وأولع عبيد بن أيوب العنبري ولعاً شديداً بتصوير مرافقته للغيلان والذئاب والحيات. ويخبرنا في هذا المجال عن مصاحبته الوحش والذئب والغول ذاكراً لونها المخطط، الذي يشبه الطرائق التي تُزين ثياب الأعراب:

وحَـالَـفْـتُ الـوحـوشَ وحَـالـفَـتْـنـي
بـقُـرْبِ عُـهُـودِهِـنَّ وبـالـبـعـادِ

وأمـسـى الـذئـبُ يَـرْصُـدني مِـخَـشـاً
لِـخِـفَّـةِ ضَـرْبَـتـي ولِـضَـعْـفِ آدي[3]

وغُـولاَ قَـفْـرَةٍ ذكـرٌ وأنـثـى
كـأنَّ عـلـيـهـمـا قِـطَعَ الـبـجَـادِ[4]

ويذكر في موقع آخر، أنه رافق الغول في أثناء تنحّيه عن البشر في القفار وأنه سمع أصواتها ورآها وهي تتلون

(١) ماط: أزال.

(٢) القلت: الحفرة من الصخر. المضلة: التي يتوه فيها المسافرون.

(٣) المخش: الجريء الأد: القوة.

(٤) البجاد: من أكسية الأعراب.

وترسل من عينيها شُعَل النار لترعبه وتخيفه، حتى تنقض عليه. يقول:

فلله دَرُّ الغول أيُّ رفيقةٍ
لِصاحِبِ قَفْرٍ خائِفٍ مُتَقَتِّرِ[1]
أرَنَّتْ بِلَحْنٍ بَعْدَ لَحْنٍ وأَوْقَدَتْ
حَوَالَيَّ نيراناً تَلُوحُ وتُزْهِرُ[2]

ويروي الجاحظ في ـ الحيوان ـ أن عبيد الله بن أيوب، كان يرى الجن ويسمع أصواتها وعزيفها في أنحاء الليل، وينقل عن لسانه هذين البيتين:

وساخرةٍ مِنّي وَلَوْ أنَّ عَيْنَها
رأتْ ما ألاقِيه من الهَوْلِ جُنَّتِ
أَزَلُّ وسِعلاة وغُولٌ بقفرةٍ
إذا الليل وَارَى الجِنَّ فيه أَرَنَّتِ[3]

وهذا الوصف للجن وللغيلان لا أصل له ولا حقيقة، وهو ضرب من الأوهام والخيالات. وأشبه بالأساطير التي

(١) متقتر: متجنب للناس.
(٢) تلوح: تظهر.
(٣) الأزل: صغير العجز وهو من صفات الذئب الخفيف. أرنت: صوتت.

يتوارثها الناس جيلاً بعد جيل. وسبب ذلك الوحدة القاسية، والابتعاد عن عالم الانس والإنسان، حيث التخيلات والأوهام، التي يتصورها الصعلوك وكأنها حقيقة ينطق بها لانعدام التوازن النفسي بينه وبين الناس، فيأخذ اللامرئي والأسطوري من عالم الوجود ويحيك حوله قولاً، لتعويض نقص ما في نفسه، أو لإظهار بطولة خارقة عنده. يقبلها البسطاء، ويتناقلها الناس حتى تصبح من الأساطير الشعبية، التي ترضي نفس العوام، وآراء البسطاء.

٦ ـ الهجاء والتهديد

وتناول الصعاليك الأمويون قبائلهم بالتهديد لأنها لم تنصرهم، ولم تأخذ بآرائهم، وتناولوا كذلك بعض القبائل التي اعتدت عليهم، وبعض العمال الذين تعقبوهم وعملوا في طلبهم من أجل محاكمتهم. وهذا القتال الكلابي يسخر برجل من عشيرته ويقذفه بالبخل الشديد، حتى إنه ليتوفر على زاده بمفرده بينما أفراد عشيرته جياع قد برّح بهم الجوع، فإذا هو سمين، وإذا هم نحفاء ضعفاء. ويرميه أيضاً بالتقتير والشح وأن ذلك طبيعة فطر عليها ولن يتحول عنها. وهذا السلوك لا يرضي الصعاليك، وخاصة القتال الكلابي لأنه كريم الشمائل، كريم النفس، صاحب عنفوان ومروّءة ونجدة.

يـا أيّهـا العَفِـجُ السـمـيـنُ وقـومُـهُ
هَـزْلَـى تُـجَـرِّرُهُـمْ ضـبـاعُ جَـعَـار[1]
أَطْعِـمْ ـ ولسـت بـفـاعـلٍ ـ وَلْـتَـعْـلَمَـنْ
أنَّ الـطعـامَ يَـحُـورُ شَـرَّ مَـحـارِ[2]

أما هجاء أبناء القبائل الأخرى فقليل نادر في شعرهم. وتمثله أبيات لعبيد بن أيوب العنبري، الذي يهزأ فيها برجلين من ضبة ضرباه لأنه تحدث إلى فتاة منهم. ويذكر بقوته وشجاعته ويتوعدهما بالغاراتِ، إلاّ أنه يتراجع عن هـذا التهديد لا لجبن فيه، ولا لخوف بل لأن عشيرة هـذين الشابين، من أهل الاحترام والتقدير، وهي عشيرة تحافظ على الجار، وتغار عليه، وتحميه عند الشدة.

بـأي فَـتًى يـا ابنيْ حـبـيـب بُلِيتُمَـا
إذا ثـارَ يـومـاً لـلغُـبـار عَـمُـودُ
بِـمُنْخَـرِقِ السِّـربـالِ كـالسِّيـدِ لا يَني
يُـقَـادُ لـحـربٍ أو تـراهُ يَـقُـودُ[3]

(١) العفج: الذي سمنت أعفاجه وهي ما يصير إليه الطعام بعد المعدة.
جعار: اسم للضبع.
(٢) يحور شر محار: يرجع قذراً.
(٣) السيد: الذئب.

فلولا رِجَالٌ يا مَنِيعُ رأيتُهم
لهم خُلُقٌ عند الجوار حَمِيْدُ
لَنَالَكُمُ مني نِكالٌ وغارةٌ
لها ذنبٌ لم تُدْرِكُوه بَعِيْدُ
أقلَّ بنو الإنسان حتى أَغَرْتُمُ
على من يُثيرُ الجنَّ وهي هُجُودُ

ويبرز هجاء العمال وتوعدهم في قول مالك بن الريب الذي يهدد الحارث بن حاطب الجمحي عامل مروان بن الحكم، الذي طلبه بعد شرّه بالناس، فهرب منه، وتوعده بأنه سيقتله ويتخلص منه، وإذا لم يستطع سيتربص بأولاده حتى ينتقم منهم إما بالمدينة، وإما على مشارفها:

فإن أَسْطَعْ أُرِحْ مِنه أُناسي
بِضَرْبَةِ فَاتِكٍ غَيْرِ اعتذارِ
وإن يُفْلِتْ فإني سوف أبغي
بَنِيهِ في المدينة أو صِرَارِ[1]

وهذا الأحيمر السعدي يتوعد ابن جندل أمير بني سعد وعاملهم لبني أمية. وينعته بأبشع الصفات، كما يصم من يُسَمَّى ابن موسى بألذع هجاء متهماً إياه بأنه ليس من أسرة

(١) صرار: موضع على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق.

عريقة، بل هو من أسرة وضيعة فقيرة، تشتتت حتى لم يبق فيها واحد يستجيب لدعوة مستغيث:

كَفَى حَزَناً أن الحمارَ ابن جَنْدَلٍ
عليَّ بأكنافِ السِّتارِ أَمِيْرُ[1]

وأنَّ ابن موسى بائعَ البَقْلِ بالنَّوى
له بَيْنَ بابٍ والسِّتَارِ حَظِيْرُ

خلا الجوْفُ من قُتَّاك سَعْدٍ فما بها
لِمَسْتَصْرِخٍ يَدْعُو الثُّبُولَ نَصِيْرُ

هذه هي أهم الموضوعات التي عنى بها الصعاليك في العصر الأموي. وكانت سجلاً لحياتهم الخاصة، وللحياة الاجتماعية في بعض فصولها.

---

(١) الستار: من بلاد بني تميم.

الخصائص الفنية لشعر الصعاليك في العصر الأموي

إن حياة الصعاليك الأمويين لم تختلف في كثير من جوانبها عن حياة الصعاليك الجاهليين. حتى غدت موضوعاتهم الشعرية متقاربة إلى حد ما. وأهم ميزات شعر الصعاليك الأمويين هي:

١ ـ شعر المقطوعات:

ومن الطبيعي أن يأخذ شعرهم هذا الشكل من فن القول لأن حياتهم قامت على التشرد والمطاردة، ولم تتهيأ لهم الفرصة الكافية لمراجعته وتنقيحه، حتى يأتي سليماً سوياً، وإن شعرهم ابتعد عن المألوف في شعر العرب، من مدح وهجاء وغير ذلك، وإنهم لم ينشدوه في المحافل والمجالس حيث الخلفاء والوزراء وقادة القوم وكبار النقاد والعلماء. وإنما أنشدوه بعيداً عن هذه الأجواء، فوق الجبال، وفي بطون الوديان، وفي أعماق القفار، ولم يبغوا من ورائه المكافآت والصلات.

٢ ـ إهمال الموروث:

مثل وصف الراحلة والناقة وتشبيهها بالثور الوحشي الذي تطارده كلاب الصيد وإن «ألموا بوصف الصحراء فإنهم لا يلمون به ليحافظوا على التقاليد، بل ليصوروا به تأبدهم وبعدهم عن الأحياء، أو ليصوروا فيه بأسهم واحتمالهم للشدائد وصبرهم على الأهوال».

إلّا أنهم وصفوا الشوق والحنين والحبيبة، والأهل والأصحاب والوطن وجاء ذلك كله في مقطوعات كثيرة تعبر عن موقف، وعن حالة.

٣ ـ تماسك المقطوعات:

كانت مقطوعاتهم الشعرية متماسكة متلاحمة تتمثل فيها الوحدة الموضوعية بأجلى صورها وأوضح مظاهرها. وجاءت كخواطر معبرة.

٤ ـ سهولة العبارة:

واتصف شعرهم بسهولة العبارة والكلمات المحببة، البعيدة عن الغريب في القول.

٥ ـ كثرة أسماء الأماكن:

إذ يطفح شعرهم بأسماء الأماكن البدوية الصحراوية،

حتى لقد تمثل ياقوت الحموي في معجم البلدان بكثير من أبياتهم ومقطوعاتهم على المواضـع «التي ذكرها وضبط شكلها وحدد مواقعها».

أهم الصعاليك الأمويين

مالك بن الريب

هو من بني مازن التميميين، ومولده ومرباه في بادية تميم بالبصرة. وشب على ما ينشأ عليه البدو والأعراب «من الصرامة والشهامة، والجد والعبوس، والنبل وإباء الضيم، كما تزوج في صباه من امرأة لا نعرف اسمها أنجبت له ولداً اسمه عتبة وبنتاً اسمها شهلة».

وتقسم حياته إلى مرحلتين:

١ ـ مرحلة التصعلك والتلصص:

وفيها كانت حياته صعبة. إذ رأى أن مصدر شقائه وبلائه الحكام الأمويون «وأنهم كانوا يريدون له أن يذل ويستسيغ الهوان». مما دفعه إلى إعلان الثورة عليهم. ويصرح أنهم «ساسة ظالمون جائرون منحرفون سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية السياسية، فقد كانوا يستوفون من قبيلته ومن غيرها من القبائل ما يفرضونه من الصدقات،

وفي مقابل ذلك كانوا يحتجزون ما لفقرائها من حق معلوم في الأموال التي ترد إلى بيت المال، كما كانوا لا يفرضون لجنودها المقاتلين في العطاء».

ومن أجل ذلك كفر مالك بن الريب بهم وامتلأت نفسه حقداً على الأمويين وآمن بالخروج عليهم، والتمرد على سلطانهم. فمال إلى الغزو والتلصص، معتمداً على الغزو والإغارة سبيلاً إلى تحقيق أهدافه.

ونتيجة لأعماله، قبض عليه وأودع سجن مكة. فقضى فيه مدة من الزمن ثم خرج ناقماً متمرداً. واتخذت ثورته صورة الغارات المنظمة على القوافل، وكانت عصابته من بني تميم أمثال أبي حردبة المازني، وغويث، وشظاظ الضبيّ، «إلى غيرهم من الأعراب التميميين الذين كانوا يؤلفون صعاليك هذه العصابة الرهيبة الفاتكة، والذين أخذوا يتربصون بالناس في القصيم وبطن فلج، ويرعبونهم ويغتصبون منهم كل ما يملكون».

ووصلت أخبار هذه الطائفة من الصعاليك إلى مروان بن الحكم عامل المدينة فكتب إلى عامله الحارث بن حاطب الجمحي وأمره بإلقاء القبض عليهم. فلم يزل يبحث عنهم ويترصدهم حتى وقعوا بقبضته «فكبل أبا حردبة، ويعث

به إلى المدينة واستبقى مالكاً وغيره من الأعراب معه، وأسند أمره إلى غلام له، فجعل يسوق مالكاً، وهو يتحين منه غفلة حتى يفلت منه، وما هي إلاّ أن يغفل الغلام، فإذا مالك ينتزع سيفه منه، وينقض به عليه، فيقتله، ويقتل الأنصاري ويقتل كل شُرطهِ ومن كان معه من رجال مروان بن الحكم، ويلحق بأبي حردبة فيفك قيده، ويخلصه من الأسر ويستوليان على إبل الأنصاري وسلاحه، ويفران هاربين حتى أتيا البحرين».

٢ ـ مرحلة التعقل:

ويوصف في هذه المرحلة بأنه «فاضل عاقل» «وينطلق مع سعيد بن عثمان بن عفان إلى خراسان بعد أن إستتابه سنة ست وخمسين للهجرة، ويشترك معه في الفتوح الإسلامية فيما وراء نهر جيحون، ويبلي بلاءً حسناً في معارك منها يوم النهر، ويوم طَاسَى». كما «يبلي في فتح بخارى وسمرقند». لكنه اختلف وسعيد وهجاه هجاء مراً.

وبعد فتح سمرقند خشي معاوية من نفوذ سعيد بن عثمان بن عفان فعزله وقفل سعيد عائداً، وبينما هو في طريقه إلى المدينة ومالك معه، مرض مالك بموضع يقال له «الطِّبسَان». واشتدت به العلة، ومات قبل أن يعود إلى موطنه وأهله.

شعره:

بقي شعره منثوراً في تضاعيف المصادر الأدبية والنحوية والتاريخية والجغرافية ونستطيع أن نقسم شعره إلى قسمين أيضاً:

١ ـ شعر التصعلك والتلصص:

وفيه حديث عن غضبه وتمرده، وفيه هجاء وتهديد للعمال والولاة. وفيه وصف لحياة التشرد، والتأبد في القفار، وحنين إلى الأهل والديار، وفيه القوة والبأس، والفروسية والشجاعة.

٢ ـ شعر التوبة والصلاح:

وفي شعره في هذه الفترة، يكشف عن إيمانه العميق، وتدينه الصادق وحرصه على نشر الإسلام، والعمل من أجل الدين الجديد، ومقاتلة أعداء الله. ومن أروع ما يدل على ذلك، قصيدته التي يصف فيها ابنته التي تعلقت بثوبه ساعة خروجه للجهاد، وهي تخاف أن تطول مدة خروجه مع سعيد بن عثمان بن عفان إلى خراسان:

وَلَقَدْ قُلْتُ لابْنَتي وهي تبكي
بدَخيلِ الهُمُومِ قَلْباً كَئِيباً

وهي تُذْري من الدُّموعِ على الخدَّ
ينِ من لَوْعةِ الفراق غُروبا
عَبَرَاتٍ يَكَدْنَ يجْرَحْنَ مَاجُزْ
نَ به أو يَدَعْنَ فيه نُدُوبا[1]
حَذَر الحتفِ أن يُصيبَ أباها
ويُلاقي من غيرِ أهلٍ شُعُوبا[2]
أسكُتي قَدْ حَزَّزْتِ بالدَّمع قلبي
طالما حَزَّ دمْعكُنَّ القلوبا
فعسى الله أنْ يُدافعَ عَنِّي
رَيْبَ ما تحذرين أو أُؤوبا[3]
ليس شيئاً يشاؤه ذو المعالي
بعزيزٍ عليه فادْعي المُجيبا
وَدَعِي أن تُقَطِّعي اليومَ قلبي
أو تُريني في رِحْلتي تعذيبا
أنا في قَبْضَةِ الإله إذا كنـ
ـت بعيداً أو كنت معك قريباً

(١) الندوب: الجروح.
(٢) الشعوب: المنية.
(٣) آب: رجع.

كـم رأيـنـا امْـرَأً أتـى مـن بـعـيـدٍ
ومُـقـيـمـاً عـلى الـفـراشِ أُصـيـبـا

فـدعـيـنـي مـن انْـتِـحَـابـك إنّـي
لا أُبـالـي إذا اعـتَـزَمْـتُ الـنَّـحِـيـبـا

حَـسْـبِـيَ الـلّهُ قَـدْ قَـرَّبْـتُ لـلـسـ
ـيـرِ عَـلاةً أنْـجِـبْ بـهـا مـركـوبـا

إنه يزجر ابنته كي تكف عن البكاء، ويطمئنها بأنه لن يصيبه إلّا ما كتب الله له. وهو مؤمن بالجهاد، والجهاد مفروض عليه، وأنه استجاب لندائه. فإن جاهد وسلّمه الله عاد إليها، وإلّا فقد أدى واجبه، واستشهد في سبيل الله.

ولمالك بن الريب شعر كثير في التوبة والصلاح. ومنه هذا البيت الذي نختم به حياة مالك:

ألـم تَـرَنـي بِـعْـتُ الـضَّـلالـةَ بـالـهُـدَى
وأَصْبَحْتُ في جَيْشِ ابن عـفَّـان غـازيـا

القتال الكلابي[1]

هو من عشائر بني كلاب التي ظلت مستقرة في نجد. تحيا حياة الرعي، وتعيش على التنقل. واختُلِف في اسمه ونسبه. والصحيح أنه أموي لأن أخباره وجرائره وقعت في خلافة معاوية بن أبي سفيان. ويقول عبد القادر الجرجاني «إنه شاعر إسلامي كان في عصر الدولة المروانية في عصر الراعي والفرزدق وجرير».

والقتّال لقب غلب عليه لتمرده وفتكه، وكنيته أبو المسيَّب، وهو أول أولاده. وهو أعرابي، كان خشناً جافاً، فظ القلب، غليظ النفس، رقيق العقيدة ضعيف الإيمان. وقد كانت المثل الجاهلية والتقاليد القبلية مسيطرة عليه، وموجِّهة لكل أفعاله.

وكان مثالاً للصعلوك الأموي الجاهل المتعصب الذي يؤمن بالحياة الجاهلية وما انطوت عليه من عصبية بغيضة. كذلك كان أنموذجاً للتمرد على القانون، والخروج على السلطان. فهو يقاوم عشيرته لأنها رفضت الانصياع لآرائه المتهورة، وأبت التورط في جرائمه. إنه يؤمن بتماسك

(١) انظر أخباره في الشعر والشعراء ص ٧٠٥. وألقاب الشعراء ص ٣١٢. والكامل للمبرد ج ١ ـ ص ٥٤ ـ والأغاني ج ٢٠ ـ ص ١٥٩.

العشيرة، ونقاء دمها، وتناصر أبنائها في الخير والشر، وهذه من مظاهر الجاهلية عنده. وبلغ من غلبة هذه النزعة على نفسه «أنه دعا عمّه أن لا يفضي إلى أَمَةٍ كانت له، لأنهم قوم يبغضون أن تلد فيهم الإماء، فلما عصاه قتلها». وكان مزواجاً، ولذلك يقول الدكتور إحسان عباس عنه «ربما كان إكثاره من الزواج يعود إلى إيمانه بالسند القبلي إذا هو رزق عدة أبناء يقفون إلي جانبه وينتصرون له».

وأول ما نعرف من أخباره التي جعلته يميل إلى الصعلكة والتلصص انه كان يحب ابنة عم له تسمى ـ العالية ـ ويبدو أن أهلها نهوه وحذروه إلاّ أنه بقي يشبب بها، فرفعوا أمره إلى عامل المدينة، فأخذه وحبسه «ولكنهم لم يلبثوا أن زاروه، وشرطوا عليه أن يستشفعوا له إذا هو امتنع عن التشبيب بها، وذكرها في شعره، قبل الشرط وخرج من السجن».

لكنه لم يف بوعده، وبقي يتردد على ابنة عمه، حتى «يُبْصِر به أخوها زياد ويُبْصِر به القتّال، فيخرج هارباً، ويخرج في أثره مستلاً سيفه يريد أن يقتله فلما دنا منه ناشده القتال بالله والرحم، فلم يلتفت إليه، وتصادف أن وجد القتال رمحاً أو سيفاً في طريقه، فتناوله وعطف به على زياد فقتله، ثم فرَّ هارباً وأهل القتيل يطلبونه، ويعلم مروان بن الحكم عامل المدينة

بجريمته، فيشدد في طلبه، ويأمر ولاته على نجد بتعقبه، ويخصص مكافأة ضخمة لمن يساعد في القبض عليه».

ويبقى القتال على اتصال بأحياء قبيلته ويختفي عند حبيب بن جبار. وتغري المكافأة التي فرضها مروان بن الحكم أحد بني العجلان، فيتجسس عليه ويعرف مكانه، ويوشي به فيرسل مروان إليه «شرطته وسعاته، وقبل أن يحاصروا المنزل يحسُّ حبيب بهم ويخرج ابنته من حجلتها ويدخل القتال فيه، ويلبس ثيابها ويرفعها ويصبغ يديه بالحناء، وينظر السعاة إليها ولا يجدون فيها إلّا امرأة، فيأخذهم الحياء وينصرفون وينجو القتال». وبعدها يبتعد عن قبيلته ويلجأ إلى جبل عماية «ويقيم في شعابه ويختفي عن رسل السلطان فيها». وهناك عاش مشرداً، واضطر أن يرافق اللصوص وقطاع الطرق، ويغير معهم على القوافل. ويبدأ حياة الصعلكة والتلصص.

شعره:

كان للقتال ديوان شعر رآه الأمدي. واختار أبو سعيد السكري «من شعره منتخبات استشهد بها على سيرته وجناياته» غير أن ديوانه ضاع وجمع الدكتور إحسان عباس ما تفرق من شعره في المصادر المختلفة وحققه وأخرجه في ديوان مستقل.

ويقسم شعره إلى قسمين:

١ ـ المثل الجاهلية:

وتتشعب منها آراؤه في القبيلة والتقاليد التي يجب أن تحافظ عليها. وقد عرضنا لبعض منها في أغراضه الشعرية، وكان قد هجا قبيلته المسالمة، التي لم تسلك طريقه في الأخذ بالثأر. ويفخر بنفسه لأنه صاحب دم نقي، عربي أصيل. ويقول في هذا:

أنا ابنُ أسماءَ أعمامي لها وأبي
إذا تَرامى بنو الإيمان بالعارِ
لا أرضعُ الدَّهْرَ إلّا ثديَ واضحةٍ
لواضحِ الخَدِّ يحمي حَوْزَةَ الجارِ
من آل سفيان أو وَرْقاءَ يَمْنَعُها
تَحْتَ العَجاجةِ ضَرْبٌ غَيْرُ عُوّارِ
أما الإماءُ فما يَدْعُونَني وَلَداً
إذا تُحدِّثَ عن نَقْضي وإمراري

٢ ـ وصف الخوف والحنين:

وذلك نتيجة هروبه الدائم في القفار وشعب الجبال. ومصاحبته للحيوان. ويبرز في شعره أيضاً الحنين إلى الاستقرار بجانب زوجاته وأولاده. وحنينه إلى موطنه وبناته يبرز في قوله:

سقى اللهُ ما بين الشُّطون وَغَمْرَةٍ
وبِئْرِ دُرَيْراتٍ وَهَضْبِ دَثينِ

أباكيةٌ بعدي جَنوبُ صَبابَةً
عَلَيَّ وأختاها بماءِ عُيُونِ

وقد انفرد القتال الكلابي بإكثاره من الحنين إلى أهله وبنيه، وبرغبته في أن يحيا حياة الاستقرار والهدوء بجانب أبنائه الذين أحبهم، وتملكه حنين جارف تجاههم. وقال في الحنين أثناء وجوده في سجن المدينة:

نَظَرْتُ وَقَدْ جَلَّى الدُّجَى طاسِمَ الصُّوَى
بِسَلْعٍ وَقَرْنُ الشمسِ لم يَتَرَجَّلِ

إلى ظُعُنٍ بَيْنَ الرَّسيسِ فَعَاقِلٍ
عَوَامِدَ لِلشَّيقَيْنِ أو بطنِ خَنْشَلِ

ألا حبذا تلك الديارُ وأهلُها
لَوَ أنَّ عذابي بالمدينةِ ينجلي

برزتُ بها من سجن مروان غُدْوَةً
فآنَسْتُها بالأَيْمِ لَمَّا تَحَمَّلِ

بَكَيتُ بِخَلْصَى شَنَّةً شَدَّ فَوْقَها
على عَجَلٍ مُسْتَخْلِفٌ لم تَبَلَّلِ

عبيد الله بن الحر الجعفي

صعلوك سياسي طامح، ولد ونشأ بالكوفة في بني مذحج. وكان في صدر شبابه «من أفضل قومه صلاحاً وصلاة واجتهاداً واجتناباً للفواحش». وكان فارساً شجاعاً. تزوج من امرأة من قومه اسمها ـ كبشة بنت مالك ـ وضعت له ثلاثة من البنين هم: صدقة وبرَّة والأسعر. وبنتين هما: سَلَمَة وثَوْبَة.

انضم في ريعان شبابه إلى جيوش الفتوح الإسلامية، واشترك في معركة القادسية. ثم رجع إلى الكوفة وبقي فيها إلى أن قتل عثمان، فأعلن أنه من شيعته وتابع معاوية مطالباً بدم عثمان، وشهد معه معركة ـ صفين ـ وبقي عنده إلى أن شك معاوية بأمره لكثرة رواده وأصدقائه. فسأله معاوية عن ذلك فقال «إنهم بطانتي وأصحابي وإخوتي، أتقي بهم إن نابني أمر أو خفت ظلامة أمير جائر». وعندها ازداد معاوية شكاً فيه، وحذره من أن يكون ميالاً للإمام عليّ، فاصطدم معه وجهر له بأنه من الموالين لعلي لأنه على حق وخرج من عنده إلى الكوفة. وفي طريقه إليها اعترضه جند معاوية فشدَّ عليهم بمن معه وغلبهم. ومضوا «لا يمرون على قرية من قرى الشام. إلاّ أغاروا عليها ونهبوها حتى وصلوا إلى الكوفة».

ولم ينصر علياً، وابتعد عنه حتى قتل، وبويع معاوية،

وبعده ابنه يزيد. ويثور عبد الله بن الزبير في مكة. ويخرج الحسين بن علي من مكة إلى الكوفة ويمر به وهو معتزل بشاطىء الفرات، ويدعوه إلى نصرته فلا يستجيب له، ويقتل الحسين بكربلاء. ويعود ابن الحر إلى الكوفة، فيظن عبيد الله بن زياد أنه كان في جيش الحسين وأنه قاتل معه، فيستفزه ويثيره، ولا يلبث ابن الحر أن يعصي شرطته، ويتوجه إلى كربلاء، ويرثي الحسين رثاء حاراً، ويأسف لأنه لم يسانده: ويقول:

يقول أميرٌ غادرٌ حقٌّ غادر
ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمة
فيا نَدَمي ألا أكون نَصَرْتُهُ
ألاّ كُلُّ نَفْسٍ لا تُسَدَّد نادمه
وإني لأني لم أكنْ من حُماتِهِ
لذو حَسْرَةٍ ما إن تُفَارِقُ لازمهْ

ويتعقبه ابن زياد ويرسل إليه الجيوش، لكنه يهزمها، ويموت يزيد وتضطرب الأحوال. فيخرج ابن الحر إلى المدائن «ولا يدع مالاً قدم للسلطان من الجبل إلاّ اغتصبه وأخذ منه عطاءه وأعطيات أصحابه، ممن خرجوا معه أو مكثوا بالكوفة».

ولعبت عوامل كثيرة في تصعلك ابن الحر منها:

١ ـ قنوطه من صلاح العرب واجتماع كلمتهم.

٢ ـ إحساسه بالضيم، لأنه لم يكن يعامل معاملة أبناء الحرائر.

٣ ـ طمعه في الجاه والسلطة.

ولهذه الأسباب مجتمعه كانت ثورة ابن الحر وتصعلكه، وإنه لم يسلك سبيل الإغارة على القوافل، كما فعل غيره من الصعاليك، ولكن هدفه كان سلطة بني أمية، والعمل لخرابها وتضعضعها. ولم يستقر على رأي وموقف وموقع. بل كان ينازل جيوش الأمويين، وجيوش المختار الثقفي، وجيوش مصعب بن الزبير، الذي سجنه فترة. وأخرجه وأطعمه خراج ـ بادوريا ـ على أن يقاتل عبد الملك بن مروان «فرفض زاعماً أن خراجها وخراج غيرها له». وامتنع عليه وأغار على جيوش مصعب بن الزبير، واستقر بتكريت وطرد منها المهلب بن أبي صفرة عامل ابن الزبير. فأرسل إليه مصعب جيشاً ضخماً كاد أن يقضي عليه فانحدر إلى الكوفة ينازل جيوش مصعب في أيام متوالية تضعضعت معها قوته وقتل أكثر صعاليكه، غير أنه لم يستسلم له، بل تحول عن الكوفة إلى المدائن وقاتل قواد مصعب بها في مواقع كثيرة، انتصر فيها عليهم، ثم انتقل إلى السواد وأخذ يجني خراجه ويغير منه على ما جاوره».

وبعد هذا انتقل إلى موالاة عبد الملك بن مروان. وأخبره أنه أتاه ليوجه معه جيشاً إلى مصعب ليحاربه ويقضي عليه. وأمده عبد الملك بالمال والرجال وانطلق إلى الكوفة، ويشتبك مع عامل مصعب عبيد الله بن عباس السلمي في معركة عنيفة ويصاب بجروح بالغة، «ثم يفر بفرسه ليعبر الفرات ويترامى إلى أسماع بعض النبط أنه مطلوب لابن الزبير فيثب عليه أحدهم وهو يعبر النهر، ويغرقان سوياً فيه».

شعره:

يقول البغدادي إن أبا سعيد السكري كان قد جمع أشعار ابن الحر في كتاب اللصوص. إلّا أن هذا الكتاب قد ضاع. وبقيت أشعاره في طيَّات الكتب القديمة. وشعره مثل شعر بقية الصعاليك في عصره. وأول ما يستوقفنا فيه حديثه عن التشرد إذ يقول:

أَلَمْ تَرَنِي بِعْتُ الإقَامَةَ بِالسُّرَى
ولِينَ الحَشَايَا بِالجِيادِ الضَّوامِرِ

وقوله:

لا كوفةٌ أُمِّي ولا بَصْرَةٌ أبي
ولا أنا يَثْنِيني عن الرحلة الكَسَلْ

ويصور الفقر كما صوره غيره من الشعراء الصعاليك.

ذلك المرض الذي يجر على الإنسان الخمول والبؤس. وكان سبيله الوحيد الإغارة دون اهتمام للحدث أو خوف منه، ينشد الغنى ويريد الثروة والجاه. وقوله في هذا:

لَعلَّ القَنَا تُدْني بأَطْرَافِها الغِنَى
فَنَحْيَا كِراماً نُجْتَدَى ونُؤمَّل

وإنه يكثر في شعره من التهديد والوعيد. مثل قوله للمختار الثقفي إذ يتهمه بالنفاق والدجل، ويتهدده بالإغارة عليه حتى لا يبقى أحد من جنوده:

وما تَرَكَ الكَذَّابُ مِنْ جُلِّ ما لنا
ولا الرزْقُ من همدان غَيْرَ شريد
أفي الحَقِّ أنْ يَنْهَبْ ضياعي شاكرُ
وتأمنَ عندي ضَيْعَةُ ابن سعيد
فإنْ لم اصبِّحْ شاكراً بكَتِيبَةٍ
فَعَالَجْتُ بالكَفَّيْنِ غُلَّ حَديدي
فما أنا بابن الحرِّ إنْ لم أرُعْهُمُ
بخيلٍ تَعَادي بالكماةِ أسود

ويصف سجنه عند ابن الزبير، وعذابه فيه. وكيف كان يتصبر على الألم. إذ نراه يتخذ من الحادثة تلك عبرة وعظة:

وَقَدْ كانَ في الأرضِ العريضةِ مَذْهَبٌ
وأيُّ امرىءٍ ضاقتْ عليه مذاهِبُهُ
وفي الدهر والأيام للمرء عبرة
وفيما مضى إن نابَ يوماً نوائبُهْ

وفي شعره أيضاً حنين إلى زوجته التي حبسها المختار من أجله. ويتمنى أن تهدأ الحياة ليعود إليها، ويعيش بأمن واطمئنان.

فما العيشُ إلاّ أنْ أزُوْركِ آمناً
كعادتِنَا من قَبْلِ حَرْبي ومَخْرَجي
وما أنتِ إلاّ هِمَّةُ النَّفْسِ والهَوَى
عليك السَّلامُ من خَليطٍ مُسَحَّج
وما زِلتُ مَحْبُوساً لِحَبْسِكِ واجِماً
وانيّ بما تَلْقِيْنَ مِنْ بعده شَجِ

ومن موضوعات شعره الجديدة العتاب، وأيضاً وصفه لمعاركه مع المختار ومصعب وقوادهما. وقد أتينا على بعض منها في متن تحليل أغراضه الشعرية.

المصادر والمراجع

١ ـ الأصفهاني ـ أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الأموي (ـ ٣٥٦هـ) الأغاني.

٢ ـ الأصمعي ـ أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ـ ٢١٦هـ).

ـ الأصمعيات ـ تحقيق. أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٦٤.

٣ ـ البحتري ـ أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي (ـ ٢٨٤هـ).

ـ الحماسة ـ طبع المطبعة الرحمانية بمصر ـ ط ١ ١٩٢٩.

٤ ـ الجاحظ ـ أبو عثمان عمرو بن بحر بن قيوب (ـ ٢٥٥هـ).

ـ البيان والتبيين ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ ط ٢ ١٩٦١.

ـ الحيوان ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ ط ١ ١٩٣٨.

٥ ـ ابن حزم ـ علي بن سعيد (ـ ٤٥٦هـ).

ـ جمهرة أنساب العرب تحقيق عبد السلام هارون ـ طبع دار المعارف ١٩٦٢.

٦ ـ ابن سلام ـ محمد بن سلام الجمحي (ـ ٢٣١هـ).
ـ طبقات فحول الشعراء ـ تحقيق محمود شاكر ـ دار المعارف ١٩٥٢.

٧ ـ الطبري ـ أبو جعفر محمد بن جرير (ـ ٣١٠هـ).
ـ تاريخ الأمم والملوك. طبعة أوربا.

٨ ـ ابن عبد ربه ـ أحمد بن محمد (ـ ٣٢٨هـ).
ـ العقد الفريد ـ تحقيق أحمد أمين وزملائه ـ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٩ ـ أحمد أمين ـ الصعلكة والفتوة في الإسلام ـ طبع دار المعارف ١٩٥٢.

١٠ ـ أحمد الشايب ـ تاريخ الشعر السياسي ـ طبع مكتبة النهضة المصرية ـ ط ٢ ـ ١٩٦٢.

١١ ـ جورجي زيدان ـ تاريخ التمدن الإسلامي ـ نشره الدكتور حسين مؤنس.

١٢ ـ شوقي ضيف ـ التطور والتجديد في الشعر الأموي ـ طبع دار المعارف ـ ط ٢ ـ ١٩٦٥.
ـ العصر الإسلامي ـ طبع دار المعارف ١٩٦٣.
ـ العصر الجاهلي ـ طبع دار المعارف ١٩٦٠.

١٣ ـ يوسف خليف ـ الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ـ طبع دار المعارف ١٩٥٩.
١٤ ـ بارتولد: تايخ الحضارة الإسلامية ـ ترجمة د. حمزة طاهر ـ طبع مطبعة المعارف ١٩٤٢.

الفهرس
الصعاليك في العصر الاموى

لا شكَّ أنَّ القارىء العربيَّ بحاجةٍ ماسّةٍ إلى الاطِّلاع على تراثه الفكريِّ العظيم المتمثِّل بالأدب والتاريخ والفلسفة والفقه وعلم الكلام وغيرِ ذلك من ميادين الثقافة والمعرفة.

وبما أن تحصيل هذه المعرفة الموسوعية المتكاملة لا يكادُ يُتاحُ إلّا لأفراد قلائل من ذوي العقول المتميِّزة والبصائر المتوقِّدة، كان لا بدَّ لنا من تقديم هذا التراث بشكلٍ مختصرٍ وجامعٍ في الوقت نفسِهِ، بحيث يوافق هذا الإطارُ المقْتَرَحُ أكثريةَ القرّاء العرب، وخاصة طلابَ المراحل الثانوية والجامعية. فكانت هذه السلسلةُ عن أعلام الأدب من نثر وشعر، تولَّى كتابتها مجموعةٌ من الاختصاصيين الذين تَحَرّوا فيها السلاسةَ في الأسلوب والعمقَ في التحليل والاختصارَ في المعلومات، بما يحقِّق الهدفَ المنشودَ من إصدارها.

كما نشير إلى أننا ـ بالإضافة إلى هذه السلسلة التي بين يديك عن أعلام الأدباء والشعراء ـ أصدرنا، وسنصدر تباعاً إن شاء الله مجموعاتٍ أخرى عن أعلام الفكر العربي والغربي في مختلف الميادين المعرفية، بنفس الأسلوب والمنهج اللذين اتبعناهما في إصدار هذه السلسلة. والله من وراء القصد.